نجيب محفوظ

حضرة المحترم



دار القلم

بيروت - لبنان

- ١ -

انفتح الباب فتراءت الحجرة مترامية لانهائية • تراءت دنيا من المعاني والمثيرات لا مكانا محدودا منطويا في شتى التفاصيل • آمن بأنها تلتهم القادمين وتذيبهم • لذلك اشتعل وجدانه وغرق في انبهار سحري • فقد اول ما فقد تركيزه • نسي ما تاقت النفس لرؤيته : الارض والجدران والسقف • حتى الاله القابع وراء المكتب الفخم • وتلقى صدمة كهربائية موحية خلاقة غرست في صميم قلبه حبا جنونيا ببهجة الحياة في ذروتها الجليلة المتسلطة • عند ذلك دعاه نداء القوة للسجود ، وحرضه على الفداء ، ولكنه سلك مع الآخرين سلوك التقوى والابتهال والطاعة والامان • كالوليد عليه ان يذرف الدمع الغزير قبل ان يملي ارادته • وتلبية لاغراء لا يقاوم خطف نظرة من الاله القابع وراء المكتب ثم خفض البصر متحليا بكل ما يملك من خشوع •

وكان حمزة السويفي مدير الادارة يتقدم الموكب الصغير فقال مخاطبا المدير العام :

ــ هؤلاء هم الموظفون الجدد يا صاحب السعادة ••

مر ضوء عينيه على الوجوه ، وعلى وجهه ضمنا ، فجال بخاطره انه

دخل تاريخ الحكومة ، وأنه يحظى بالمثول في الحضرة • وخيل اليه انه يسمع همهمة من نوع عجيب ، لعله يسمعها وحده ، ولعله صوت القدر نفسه • ولما استوفت الفراسة امتحانها الوئيد تكلم صاحب السعادة • تكلم بصوت بطيء وهادىء ومنخفض فلم يكشف عن شيء يذكر من جوهره • قال متسائلا :

ـ جميعهم من حملة البكالوريا ؟

فأجاب حمزة السويفي :

ـ بينهم اثنان من حملة التجارة المتوسطة •

فقال صاحب السعادة بنبرة مشجعة :

ـ العالم يتقدم ، كل شيء يتغير ، ها هي البكالوريا تحل محل الابتدائية •

اطمأنت القلوب ودارت فرحتها بمزيد من الخشوع ، فقال الرجل:

ـ حققوا المأمول منكم بالاجتهاد والاستقامة •

وراح يراجع بيانا بالاسماء حتى سأل عن غير توقع :

ـ من منكم عثمان بيومي ؟

دق قلبه دقة قوية جدا • وقع نطق الرجل لاسمه من نفسه موقعا مؤثرا عنيفا • تقدم خطوة مطرقا وهمس :

ـ انا يا صاحب السعادة !

ـ ترتيبك ممتاز في البكالوريا فلم لم تكمل تعليمك ؟

صمت • اضطرب • لم يدر في الواقع ماذا يقول بالرغم من حضور الجواب في وعيه طيلة الوقت • وعنه اجاب مدير الادارة كالمعتذر :

ـ لعلها ظروف يا صاحب السعادة !

سمع الهمهمة مرة اخرى ، سمع صوت القدر • ولاول مرة شعر بأن ثمة زرقة تخضب الجو ، وأن رائحة طيبة غريبة تجول في المكان • ولم يحزنه ان يشار الى «ظروفه» المعوقة بعد ان تقدس شخصه بعطف

صاحب السعادة وتقديره . وقال لنفسه انه يستطيع ان يحارب جيشا بمفرده فينتصر عليه . والحق انه ارتفع وارتفع حتى غاص رأسه في السحاب ، وثمل لدرجة العربدة الوحشية . اما صاحب السعادة فنقر على حافة المكتب وقال مؤذنا بالختام :

ـ شكرا ، ومع السلامة ..

وهو يغادر المكان قرأ في سره آية الكرسي .

- ٢ -

اني أشتعل يا ربي •

النار ترعى روحه من جذورها حتى هامتها المحلقة فـي الاحلام • وقد تراءت له الدنيا من خلال نظرة ملهمة واحدة ، كموجة من نـور باهر ، فاحتواها بقلبه وشد عليها بجنون • كان دائما يحلـم ويرغب ويريد ولكنه في هذه المرة اشتعل ، وعلى ضوء النار المقدسة لمح معنى الحياة • اما على الارض فقد تقرر الحاقه بالمحفوظات • لم يهمه كيف يبدأ فالحياة بدأت من خلية واحدة بل من دون ذلك • وهبط الى مقره الجديد وجناحاه ترفرفان ، يشق طريقه الى بدروم الوزارة • طالعتـه قتامة ، ورائحة اوراق قديمة ، ورأى سطح الارض في الخارج عنـد مستوى رأسه من خلال نافذة مصفحة • وامتد البهو امامه • تتلاصق على جانبيه دواليب شنن ، وصف طويل منها يشقه شقا طوليا ، علـى حين استقرت مكاتب الموظفين في ثغرات بين الدواليب • ومضى وراء موظف الى مكتب يستعرض تجويفا كالمحراب في الصدر جلس اليـه رئيس المحفوظات • لم يكن أفاق من نفثة السحر المقدسة ، حتى الغوص في البدروم لم يوقظه • سار وراء الموظف بتشتته وذهوله وانفعالاتـه

وهو يقول لنفسه : اللانهاية هي ما ينشد الانسان •
وقدمه الموظف الى الرئيس :
ــ عثمان افندي بيومي الموظف الجديد •
ثم قدم الرئيس اليه قائلا :
ــ رئيسنا سعفان أفندي بسيوني ••
رأى في الوجه قرابة طبيعية كأنما كان في الاصل من مواليد حارته • وأحب عظام وجهه البارزة وجلده الغامق المشدود وشعر رأسه الابيض المشعث ، وأحب اكثر نظرة عينيه الاليفة الطيبة النزاعة لعكس معنى الرياسة بلا جدوى • ابتسم الرجل كاشفا عن أقبح ما فيه . أسنان سود مثرمة ، وقال :
ــ اهلا بموظفنا الجديد ، اجلس ••
وراح يقلب في صور اوراق تعيينه ثم قال :
ــ اهلا •• اهلا •• الحياة يمكن تلخيصها في كلمتين ، استقبال ثم توديع ••
وقال عثمان في نفسه ولكنها رغم ذلك لانهائية • وهفت عليه ريح خفية مجهولة مليئة بجميع الاحتمالات فقال انها لانهائية ولكنها في حاجة الى ارادة لانهائية كذلك • وأشار الرئيس الى مكتب خال متآكل الجلدة منجرد اللون ملطخ ببقع حبر باهت وقال :
ــ مكتبك ، تفحص الكرسي بعناية فان أحقر مسمار قد يهتك بدلة جديدة ••
فقال عثمان :
ــ بدلتي قديمة جدا والحمد لله ••
فواصل الرجل تحذيره :
ــ واقرأ الصمدية عندما تفتح دولابا من دواليب شنن فقبيل العيد الماضي طلع علينا من احد الدواليب ثعبان لا يقل طوله عن متر ••

وضحك حتى سعل ثم استدرك :

ـ ولكنه لم يكن من نوع سام ..

فتساءل عثمان بقلق :

ـ وكيف نفرق بين السام وغير السام ؟

ـ عندك فراش المحفوظات فهو اصلا من ابو رواش وهي بلـدة الثعابين ..

وتناسى ذلك واعتده مزاحا . وراح يلوم نفسه كيف فاته ان يرى بكل عناية حجرة صاحب السعادة المدير العام ، كيف فاته ان يملأ عينيه من وجهه وشخصه ، كيف لم يحاول ان يقف على سر السحر الـذي يخضع به الجميع فيجعلهم طوع اشارة منه . هذه هي القوة المعبودة وهي الجمال ايضا . هي سر من اسرار الكون . على الارض تطـرح اسرار الهية لا حصر لها لمن له عين وبصيرة . ان الزمـن قصير بين الاستقبال والتوديع ولكنه لانهائي ايضا . الويل للذي ينسى هـذه الحقيقة . ثمة اناس لا يتحركون مثل سعفان افندي بسيوني . الرجل الطيب التعيس . انه يترنم بحكمة لم يتعلم منها شيئا . كذلك كـان ابوه عم بيومي . وليس كذلك من مست النار المقدسة قلوبهم . هناك طريق سعيدة تبدأ من الدرجة الثامنة وتنتهي متألقة عند صاحب السعادة المدير العام . هذا هو المثل الاعلى المتاح لابناء الشعب ولا مطمح لهم وراء ذلك . تلك هي سدرة المنتهى حيث تتجلى الرحمة الالهية والكبرياء البشري . ثامنة .. سابعـة .. سادسة .. خامسة .. رابعـة .. ثالثة .. ثانية .. أولى .. مدير عام . معجزتها تتحقـق في اثنتين وثلاثين عاما ، وربما تحققت في اكثر من ذلك ، اما الساقطون فـي وسط الطريق فلا حصر لهم . ان النظام الفلكي لا يطبق علـى البشر وبخاصة الموظفين منهم .. والزمن يبتكن بين يديه كطفل وديع ولكن لا يمكن التنبؤ بعده . انه يشتعل ، هذا كل ما هنالك . ويخيل اليه ان

النار المتقدة في صدره هي التي تضيء النجوم في أفلاكها . نحن اسرار لا يطلع على خباياها الا خالقها .

وقال له سعفان افندي بسيوني :

ـ ستدرب اولا على الوارد فهو أسهل ..

ثم وهو يضحك :

ـ على كاتب المحفوظات ان يخلع جاكتته وهو يعمل او ان تحيك لكوعك كمامة من القماش تقيه شر الغبار والاكلبسات .

كل ذلك يسير ، اما العسير حقا فهو كيف تتعامل مع الزمن ..

- ٣ -

في مسكنه ــ حجرة وحيدة ومرافق ــ يرى نفسه ، يتجسد له معنى حياته . انه يعيش متفتح الحواس مرهف الوعي ليتزود بكل سلاح . ومن نافذته الصغيرة يرى وطنه ــ حارة الحسيني ــ كأنها امتداد لروحه وجسده . حارة طويلة ذات منحنى حاد ، مشهورة بموقف للكارو ومسقى للحمير . البيت الذي ولد ونشأ فيه تهدم . وقامت في موضعه باحة صغيرة لعربات اليد . قليل من مواليد الحارة من يبرحها بصفة نهائية الا للقبر . يعملون في مواقع كثيرة ، في المبيضة .. الدراسة .. السكة الجديدة .. او فيما وراء ذلك ، ولكنهم يرجعون اليها آخر النهار . ومن خواصها الحميمة انها لا تعرف الهمس او النجوى ، اصواتها مرتفعة جدا ، متوترة بين الحكمة والبدائية ، ومن بينها صوت قريب قوي خشن لم يخلخله الكبر ، صوت ام حسني صاحبة البيت . ان احلام الابدية جد مرهقة ، ولكن ماذا كان بالامس ، وماذا يكون اليوم ؟. خليق بمثله ألا يعرف المستحيل . وخليق به ألا يترك نفسه للتيار بلا خطة . وخطة محكمة . كثيرا ما يحلم انه يبول ولكنه يستيقظ في اللحظة المناسبة ، فما معنى ذلك . أم حسني كانت صديقة

لأمه وزميلة ومرشدة ، صديقة عمر طويل • كانت كلتاهما زوجة لسواق كارو ، وعاملة كادحة ، تكد بصبر النمل ودأبه سعيا وراء القرش ، تسند به زوجها وترمم عشها • دلالة •• ماشطة •• خاطبة ، وغير ذلك • ماتت امه وهي تعمل أما أم حسني فما زالت تعمل بهمة عاليـة • وكانت أم حسني أحسن حظا وأوفر رزقا فتجمع لديها من المال ما بنت به بيتهـا المكون من ثلاثة أدوار ، مخزن أخشاب ارضي وشقتين ، تقيم هي في احداهما وعثمان في الاخرى • وابنها حسني لم يخلف وراءه الا اسمه اما شخصه فقد حملته ايام الحروب والمحن الى بلاد نائية فاستقر فيها•

الا يحق له ان يحلم ؟• انه يحلم بفضل الشعلة المقدسة التي تتقـد في صدره ، وبفضل حجرته الصغيرة يحلم ايضا • وألف احلامه كمـا يألف الفراش والكنبة والسحارة والحصيرة ، وكما ألف الاصـوات الحادة والمنغومة التي تند عن حنجرته يتردد أصداءها الجدران الراسخة القاتمة •

ماذا كان بالامس ؟• اراد ابوه ان يجعل منه سواق كارو مثله ولكن شيخ الكتاب قال له :

ـ يا عم بيومي توكل على الله وادخل الولد المدرسة الابتدائية ••

فذهل الرجل وتساءل :

ـ ألم يحفظ من القرآن ما يقيم به الصلاة ؟

فقال الشيخ :

ـ الولد ذكي وعاقل وربما رأيته يوما من رجال الحكومة ••

وقهقه عم بيومي غير مصدق فقال الشيخ :

ـ عليك بمدارس الاوقاف فربما قبل بالمجان ••

وتردد عم بيومي زمنا ثم تمت المعجزة • ونجح عثمان في المدرسة نجاحا مذهلا حتى حصل على الابتدائية • تميز عن أقرانه الحفاة من ابناء الحارة ورأى بعينيه الحادتين اول شرارة مقدسة تنطلق من فؤاده

النابض وأيقن ان الله يبارك خطاه ويفتح له ابواب اللانهاية . والتحق بالمدرسة الثانوية بالمجان كذلك فحقق من النجاح ما لم يصدقه احد في حارة الحسيني . ومرض عم بيومي مرض الوفاة وابنه في السنة الثانية، فندم الرجل على ما «فعله» بابنه وقال له :

ــ ها انا إتركك تلميذا لا حول له ، فمن يسوق الكارو ، ومن يحفظ البيت ؟

وفاضت روح الرجل وهو حزين . وضاعفت الام من نشاطها مؤملة ان يجعل الله من ابنها كبيرا من الاكابر ، أليس الله بقادر على كل شيء ؟!. ولولا وفاة الام بغير توقع لأكمل عثمان تعليمه في المدارس العليا . وقد اشتدت لذلك حسرته ، وضاعف من حدتها اكتمال وعيه بطموحه وبأحلامه اللاهثة المقدسة . ومقدسة عنده ايضا ذكرى والديه. وكل موسم يزور قبرهما وهو من قبور الصدقة الضائع بين القبور في العراء . وهو اليوم وحيد ، مقطوع من شجرة . قتل اخوه الاكبر ــ كان شرطيا ــ في مظاهرة ، وماتت اخته بالتيفود في مستشفى الحميات ، وأخ آخر مات في السجن . انه يتذكر اسرته فيشقى بالتذكر ويرثي لوالديه ، ويقرن تلك الاحداث بدراما عليا يتطلع اليها باحترام ووجل ، فالمصائر تتقرر في الحارة بفضل الارادات المتصارعة والقوى المجهولة ثم تتقدس في الابدية . لذلك فهو يؤمن بنفسه بلا حدود ولكنه يعتمد في النهاية على الله ذي الجلال . ولذلك ايضا فلا تفوته فريضة وبخاصة صلاة الجمعة في جامع الحسين . وكايمان اهل حارته لم يكن يفرق بين الدين والدنيا ، فالدين للدنيا والدنيا للدين ، وجوهرة متألقة مثل درجة المدير العام ما هي الا مقام مقدس في الطريق الالهي اللانهائي . ولما كان يعيش بين زملائه بوعي يقظ لماح فقد التقط ما يهمه من المعاني والكلمات ، ثم عكف على دراسة خطة دقيقة للمستقبل، ترجمها في ورقة عمل ليذاكرها كل صباح قبل انطلاقه الى العمل :

شعار للعمل والحياة

١ ــ القيام بالواجب بدقة وأمانة .
٢ ــ دراسة اللائحة المالية التي يشار اليها كأنها كتاب مقدس .
٣ ــ الدرس للحصول على شهادة عليا ضمن الطلبة الذين يعملون من منازلهم .
٤ ــ دراسة خاصة للغتين الانجليزية والفرنسية بالاضافة الى العربية .
٥ ــ التزود بالثقافة العامة وبخاصة الثقافة المفيدة للموظف .
٦ ــ الاعلان بكل وسيلة مهذبة عن تديني وخلقي واجتهادي في عملي .
٧ ــ العمل على كسب ثقة الرؤساء ومحبتهم .
٨ ــ الاستفادة من الفرص المفيدة مع الاحتفاظ بالكرامة مثل مساعدة ادبية تقدم لذي شأن ، صداقة مفيدة ، زواج موفق من شأنه تمهيد الطريق للتقدم .

ولم يكن من النادر ان ينظر في مرآة صغيرة معلقة بمسمار بين النافذة والمشجب ليتفحص منظره ، وليطمئن على نفسه من هذه الناحية . لن يكون منظره عائقا في سبيله على اي حال ، فهو قوي الجسم كأبناء حارته ، ووجهه أسمر طويل ذو جبهة عالية مشرقة وشعر حليق ، وبصفة عامة سيجد في جسمه الصلاحية لملء اي مركز مهما جل شأنه .

وقال لنفسه مستمدا من طواياها القوة والتشجيع :
ــ بداية لا بأس بها ، وطريق بلا نهاية ..

- ٤ -

ساعة اللقاء عند أعتاب الخلاء مقدسة ايضا . وهو يهرع اليها بقلب مشغوف ، وبمرح من يتخفف من حمل الايام بثقلها العتيد . هناك عند مشارف الصحراء يقوم السبيل الاثري المهجور ، على ادنى سلمه يجلسان جنبا الى جنب في أحضان الاصيل اللامتناهية ، تترامى الصحراء أمامهما حتى سفح الجبل ، ويغنى الصمت بلغته المجهولة . سمرتها الغامقة تشبه لون المساء المتحفز ، سمرة موروثة عن ام مصرية وأب نوبي توفي وهي في السادسة . زمالتهما القديمة في الحارة تمتد أصولها في الماضي البعيد حتى تتلاشى في منبع الحياة نفسه . عندما ينظر في عينيها النجلاوين الواسعتين او يرى جسمها الصغير المدمج الفائر بالحيوية فانه يتلقى المثال المثير لفطرته الذي يبعث في غرائزه اليقظة والابتهال . انها قرينة طفولته في الحارة وفوق السطح ، وزميلته في الكتاب ، وبالرغم من انها لم تجاوز السادسة عشرة فهي معدودة ست بيت ماهرة ، وهي يد امها الوحيدة بعد ان تزوجت اخواتها السبع .

ابتسمت سيدة . وجهها بسام دائما ، وعينها مشعة ، وأطرافها

تتناوبها حركة رشيقة دائمة ومتوترة ، وخصلات شعرها المموج الخشن ترقص في تيار النسيم الجاف الهابط من الجبل • ومرقت من الصمت العذب قائلة :

ــ فرحت امي بدخولك الحكومة ••

فسألها في دعابة :

ــ وأنت ؟

فتمادت في ابتساماتها ولم تجب • أحاطها بذراعه ولثم بشفتيــــه الحادتين شفتيها المليئتين • لم يجر للحب ذكر بينهما ولكنهما يعربان عنه في كل خلوة بالاحضان والقبل • وهي تشبع من نفسه جانبها المنهــوم بالحياة في بساطتها ومسراتها ، ويحبها بعقله ايضا لانه يقدر مزاياهــا واخلاصها ، ويشعر بتلقائية بأنها كفيلة باسعاده •

ــ اصبحت موظفا ••

وشى صوتها بالاعجاب فقبلها مرة ثانية •

ــ لم يحظ احد في حارتنا بذلك ••

جميع أقرانه يعملون في شتى الحرف • يرمقونــــه ــ اذا مر ــ بالاعجاب وأحيانا بالحسد • ما اجدره بأن يسر لولا شعوره الحــــاد القاسي بطول الطريق وعناده .•

ــ انت الافندي الوحيد !

فقال بهدوء :

ــ لا قيمة لذلك خارج حارتنا •

ــ الخارج لا يهم ، اما حارتنا فهي حارة الكارو !

فقبلها للمرة الثالثة وقال :

ــ لا تتكلمي عن الكارو الا بالاحترام ••

ــ صدقت ، انت شهم ••

وقد قبض على ابيها في المعركة التي قبض فيها على اخيه فدخــــل

السجن ومات فيه بسببها ، ولكن تلك الاحداث تعد من الامجاد التي يطيب بها ذكر الحارة • ولكن سيدة تدور حول نقطة واحدة لغرض واضح • ولا جدوى من تجاهله فها هي تسأل :

ـ وماذا بعد ذلك ؟

انه يدرك لهفتها على كلمة يطيب بها الفؤاد ويسعد • ويعلم ايضا ان سعادته لن تقل عن سعادتها بحال ان لم تزد • انه يحب هذه الفتاة كما تحبه ولا غنى له عنها • ولكنه يخاف • عليه ان يفكر الف مرة • وليراجع ورقة العمل المريرة • وليتأمل طويلا الحياة التي تقف امامه مرحبة ومتحدية معا •

ـ ماذا تعنين يا سيدة ؟••

فأجابت معاندة في خفة :

ـ لا شيء !

ـ لا يجوز ان ننسى اننا صغيران ••

ـ انا ؟!

قالتها باحتجاج عذب اشارت به اشارة مليحة الى أنوثتها الصارخة :

فقال مداعبا :

ـ انما قصدت نفسي ••

ـ اطلق شاربك فهذا ما ينقصك •

اخذ مزاحها مأخذ الجد وفكر بأن ذلك قد ينفعه حقا في نضاله فمنذا الذي يتصور موظفا كبيرا بلا شارب ؟!

قال بهدوء :

ـ سأكمل تعليمي يا سيدة •

ـ هل ما زال ينقصك تعليم ؟

ـ الشهادة العليا •

ـ لماذا ؟

ـ مساعد لا بأس به للترقي •

ـ وهل يلزمك وقت طويل ؟

ـ اربعة اعوام على الاقل •

قرأ بتألم خفي الفتور في عينيها وربما الخجل وشيئا من الغضب !

وما ضرورة الترقي ؟

ضحك • لثم شعرها • لم يجرؤ على تجاوز ذلك • ذكرته رائحة شعرها بملاعب الطفولة والصبا ، وبكلمة اصابت ظهره عندما ضبطا وهما يلعبان لعبة العريس والعروس • لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناء من فونوغراف •

ـ الظاهر ان الترقي مهم اكثر مما تصورت ••

فتناول يدها بين يديه وغمغم :

ـ احبك ، الى الابد ••

نطق صدقا • وبقدر صدقه اغتم وتألم وسخط على نفسه ، وقال ان تجربة الحياة عظيمة جليلة ولكنها مرهقة •

- ٥ -

وقف على قبر والديه الضائع بين قبور لا حصر لها وقرأ الفاتحة ، ثم قال :

ـ يرحمكما الله رحمة واسعة ..

ثم ناجاهما بامتنان قائلا :

ـ عثمان موظف محترم يخطو خطواته الاولى في طريـــق عسير ولكنه مصمم على السير حتى النهاية .

ثم انحنى قليلا وقال بابتهال :

ـ كل ما نلت من خير فبفضل الله وفضلكما ..

وتلا غلام ضرير بعضا من السور الصغيرة فنقده نصف قرش ، ورغم تفاهة المبلغ لم يخل من الضيق الذي يركبه عند الدفع . ولما ذهب الغلام عاد الى مخاطبة والديه قائلا :

ـ عهد الله ان أنقلكما الى قبر جديد اذا حقق الله آمالي ..

ولم يكن لديه فكرة عما يبقى من الجثث في مجرى الزمن ولكنه تخيل أن يبقى شيء على اي حال . وتذكر وهو يعجب لذلك سيـــدة فوضحت صورتها الباسمة امام عينيه ، وخيل اليه انها تتحفز لاطـلاق

ملاحظة حادة وصريحة وساخرة ، انقبض قلبه وتوجع وهمس :

ـ اللهم اهدني سواء السبيل فكل ما أفعل من وحيك ..

وعاش من جديد الايام الاخيرة لأبيه ، هذا امر لا مفر منه ، كان المرض والكبر قد أقعداه فكانت نزهته ان يفترش فروة امام البيت ، لا يكاد يرى او يسمع ، يتأمل عجزه ، يتأوه هاتفا :

ـ اللهم لطفك ورحمتك ..

كان في زمانه من رجال الحارة الاشداء ، عاش حياة طويلة معتمدا على عضلات ذراعيه وساقيه ، يعمل بلا انقطاع ويعاني على المدى شظف العيش والفقر ، قوة مهدرة تتغذى على لا شيء ويقهقه في الملمات بلا معنى ولا سبب ، ووجد ذات مساء ميتا حيث يجلس على الفروة فلم يدر احد كيف حضره الموت ولا كيف تلقاه هو ، اما امه فكانت ميتتها أدعى للدهشة ، كانت تغسل فانطوت على نفسها حتى تقوست وراحت تصرخ من شدة الالم ، وجاءت الاسعاف فحملتها الى قصر العيني وتقرر اجراء جراحة في الاعور قتلت في اثنائها ،

أسرته ضحية فريدة للموت ، شيء قال له في باطنه انه ربما بسبب ذلك سيعمر هو طويلا ، واجتاحته موجة من الاسى ، كل موت معقول بالقياس الى موت اخيه الشرطي ، رجل كالجمل يقتل بطوب الثوار ، اي ميتة ، لا يعرفهم ولا يعرفونه ، انه يقف من تلك الاحداث موقف المتفرج المتعجب ، لا يفقه لها معنى على الاطلاق ، أجل عرف الكثير من مطالعة التاريخ ، عرف التاريخ من اقدم العصور حتى قبيل الحرب العظمى ، عرف الثورات ، ولكنه لم يعشها ولم يستجب لها ، وقد رأى وسمع ولكنه انعزل وتعجب ، لم يحظ بعاطفة عامة واحدة تشده الى الميدان ، ما عجب اقتتال رجال الدولة الكبار وأتباعهم ، لقد عاش حياته مطاردا بالفقر والجوع فلم يدع له ذلك وقتا لمد آفاق تفكيره الى الخارج ، انحصر في الحارة بهمومها المجهولة من الجميع ، الوحشية ،

القاسية ، المتلاحقة • واليوم يعرف لنفسه هدفا دنيويا والهيا في آن لا علاقة له في تصوره بالاحداث العجيبة التي تجري باسم السياسة • قال ان حياة الانسان الحقيقية هي حياته الخاصة ، التي ينبض بها قلبه في كل لحظة ، التي تستأديه الجهود والاخلاص والابداع • انهـــا مقدسة ودينية • بها تتحقق ذاته في خدمة الجهاز المقدس المسمـــى بالحكومة او الدولة • بها يتحقق جلال الانسان على الارض فتتحقق به كلمة الله العليا • انهم يهتفون بغير ذلك او بما يناقض ذلك ولكنهم مجانين مزيفون • ولذلك فانه لم يغفر لنفسه انه لم يملأ عينيه مـــن حجرة المدير العام ، ولا من شخصه المتفرد الذي يحرك الادارة كلها من وراء برافان ، في نظام دقيق وتتابع كامل يذكر الغافل بالنظام الفلكي وبحكمة السماوات •

تنهد بعمق •

قرأ الفاتحة مرة اخرى • قال مودعا :

ــ ادع لي ربك يا ابي •

ودار حول القبر الذي سقط شاهداه وتشقق ركنه ثم قال :

ــ ادعي لي ربك يا امي •

- ٦ -

ما أعجب الفصول في تعاقبها ، انه يعايشها من خلال عمله المتواصل ، الشتاء في الحارة فصل شديد القسوة ولكنه يحفز للعمل ، الربيع بخماسينه لعنة ، الصيف جحيم ، الخريف بسمة غامضة متأملة ، انه يواصل العمل بارادة صلبة وشهوة نارية ، ها هي كتب القانون تصطف تحت الفراش وفوق منصة النافذة ، لا ينام من الليل الا أقله ، يعانق الافكار ويصارع الغموض ، وحتى النجاح لا يريد ان يقنع به وحده ، ويوم الجمعة يخصص عادة للثقافة العامة الجديرة بالمديرين ومن في خدمتهم ، واهتم بالشعر خاصة ، حفظ الكثير ، بل حاول نظمه ولكنه فشل ، قال ان الشعر كان وما زال خير وسيلة للتقرب من الكبراء ، والتألق في الحفلات الرسمية ، انه لخسران فادح ان يفشل في نظمه ، ولكنه على اي حال خير طريق لاتقان النثر ، والخطابة لا تقل عن الشعر في النجاح المنشود ، والاسلوب الجزل مطلوب ، قلبه يحدثه بذلك ، واللغات الاجنبية مثله وأكثر ، جميع تلك المعارف مفيدة، ولها وقتها الذي ترتفع فيه قيمتها في بورصة المضاربات الديوانية ، فليس بالتعليمات المالية وحدها يحيا الموظف ، أجل عليه ان يتزود من كل شيء نافع بطرف فمن يعلم ؟، وكان يقول ان حياته تيار غير منقطع

ماض في مجرى النور والعرفان ، يتكاثف بكل طريف ، ويتشعب في مجالات الفكر ، تدفعه حرارة الايمان والكبرياء البشري الشريف ، ليصب في النهاية في الاعتاب الالهية •

اما راحة النفس فيحظى بها على سلم السبيل الاثري • في عناق الحب المشبوب • بين يدي الفتاة الجميلة المحبة • في حضنها العذري المشتعل • بلا تورط في فعل او قول • لكنه يتعلق به تعلقه بالحياة نفسها • آه لو كانت الحياة تقنع بالحب والسعادة اليسيرة • ومن شدة قلق سيدة تجاوزت تحفظها الفطري • تمادت في الافصاح عن عواطفها الصادقة • كشفت عن لهفتها المحمومة • قالت له مرة بورع :

ـ لا حياة لي بدونك •

ولكن بدا قولها فاترا بالقياس الى ما تمنحه شفتاها المليئتان • وقالت له مرة ايضا :

ـ انت كل شيء ، ما مضى وما هو آت ••

وعيناها العسليتان تبعثان ألقا ناطقا بالوفاء والجزع والاشواق الصادقة • وفي غمار العناق الذائب في الانفس المحترقة قالت متنهدة :

ـ ينقصنا شيء ••

فقال ببلادة وأنانية :

ـ حبنا الكامل لا ينقصه شيء !

فرفعت منكبيها محتجة ولكن بحذر من يرغب عن احراجه ويستعين عليه بالصبر والاصرار • ووجد انه يعاني كبتا مرعبا سيرمي به مرة تحت رحمة المجهول • لذلك أذعن لاغراء زميل دعاه الى زيارة لدرب البغاء الرسمي • وكابن من ابناء حارة الحسيني لم تعوزه الجرأة الكافية • انطلق في الدرب الذي يضيئه مصباحان غازيان متباعدان يغلفهما الغبار الراسخ فيغرق جنباته في شبه ظلام مثير للشهوات • وقلب عينيه القلقتين حتى استقر على صيد • ويعقب ذلك عادة اكباب على طلب

الغفران ، وعكوف طويل على الصلاة والعبادة • وهو ما يفعله عادة كلما واجه نواياه العميقة الخفية من ناحية سيدة • فالى جانب عناء العمل المتواصل وجد عناء أشد من عذابات ضميره • وكان يختم لياليه الطويلة المرهقة في اعياء نفسي شديد ، كالاغماء ، وأحيانا تبتل جفونه وهو لا يكاد يدري •

وكان سعفان بسيوني رئيس المحفوظات يتابع نشاطه الرسمي باعجاب وحذر • أعجب بجلده وحسن تصرفه وخلقه ، ولم يرتح من بادىء الامر الى البكالوريا التي تميز بها وحده في المحفوظات ، ولا الى طموحه الى المزيد من التعلم الذي سيرفعه درجات جديدة من الامتياز عليه هو بشهادته اليتيمة «الابتدائية» • وفطن عثمان الى ذلك في حينه ولكنه طمع في طينته الفطرية وضاعف من تودده اليه واذعانه لتوجيهاته حتى اطمأن الرجل اليه تماما وفتح له قلبه في صفاء نادر • وفي اوقات الفراغ قربه اليه ، وأفضى اليه بخواطره ، حتى السياسة صارحه فيها برأيه وأهوائه • ولشدة حماس الرجل جفل عثمان من الاعراض عن اهتماماته او معالنته بحياده البارد ازاءها ، وقال بغموض وحذر :

ــ الحق اننا من مشرب واحد ، ولا عجب في ذلك ••

فسر الكهل بقوله سرورا عظيما ذهل له عثمان • عجيب استغراق الرجل في هذه الشؤون • وأعجب منه استغراق زملائه التعساء فيها • ماذا يشدهم اليها ؟• أليس لديهم هموم صميمية تشغلهم عنها ؟• ولكنه قال لنفسه بازدراء غير قليل انهم أناس لا يعرفون لانفسهم هدفا محددا، وايمانهم الديني ايمان سطحي ، ولم يفكروا بما فيه الكفاية في معنى الحياة ، ولا فيما خلقهم الله من اجله • وهكذا تتبدد افكارهم وأعمارهم في لهو وسفسطة ، وتهدر قواهم الحقيقية بلا عمل ، تستغفلهم الاوهام، ويمضي الزمن وهم لا يعملون ••

- ٧ -

وقال له سعفان بسيوني بعد ان تلقى منه بريد الوارد :

ــ اني ادعوك الى سهرة ممتعة في بيتي ••

دهش وانزعج ولكنه لم يفكر في التملص • قال الرجل :

ــ يوجد حفل زفاف في بيت الجيران ، سنتعشى معا لحمة رأس ، ونجلس في الشرفة نستمع للغناء ••

كان الرجل يقيم في شقة بالدور الثالث ببيت بعطفة البحر بباب الشعرية • وتبين له انه كان المدعو الوحيد طاب نفسا بالمكانة التي يؤثره بها رئيسه ، وتناول معه عشاء لذيذا مكونا من المخ والجبهة واللسان والجوهرة وممبار وفتة بالتقلية غير الفجل والمخلل ، وحلوى من الشمام • أكلة ممتازة ووفيرة وقد اكل حتى امتلأ • وجلسا في شرفة تطل على فناء البيت الذي قام فيه الفرح • تبدى الفناء غارقا في الانوار تصب عليه من كلوبات كثيرة • وصفت به الأرائك والكراسي التي اكتظت بالمدعوين • واكتظت المماشي بالغلمان والاطفال ، وأحدق عشرات وعشرات منهم بسور الفناء من الخارج • وشعت الانوار في البيت من الداخل ايضا وتراءت النساء وهن يذهبن ويجئن • وهدر

المكان بالاصوات من جميع الدرجات والانواع ، وارتفع الضحـــك والسعال والزغاريد • خفق قلب عثمان وهو يرنو الى جو الفـــرح وانتقلت الى فؤاده حرارته الفواحة بعطر الجنس والحب • لذلك تلقى دغدغات التخت الاولى بتأثر أشد مما توقع ومما ألف • فهو لا يعشق الغناء ولكن اذا جاءه بلا كلفة فلا بأس به ولو الى حين قليل • حسن ، الموسيقى لا بأس بها احيانا ؛ شيء طيب ومريح • الزواج علاقة باهرة وفرح ودين • وخالجه شعور شامل بالاسى •

ـ لعلك في حاجة الى الترفيه ، هذا ما اقوله لنفسي كثيرا ••

قال سعفان ذلك وهو ينظر ناحيته بوجه تضيء أنوار الفرج أجزاء منه وتتوارى أجزاء في الظلال • وقال ايضا :

ـ عمرك يجري في العمل والدراسة ولكن الحياة تطالبنا بأشيـاء كثيرة ••

أصغي اليه باهتمام في الظاهر واستخفاف في الباطن • انه يحتقر المواعظ التي تحث على الكسل ويعتدها تجديفا بذي الجلال ، غير انه تذكر سيدة في عذابها الطويل ؛ وما عليه ان ينجزه ويحفظه ويراجعه ، وشعر بأنه يبتسم ابتسامة لا معنى لها • وعاد سعفان يقول :

ـ لك همة عالية ولكن راحة البال جوهرة ثمينة ايضا ••

فقال له واستخفافه به يتصاعد :

ـ انت رجل حكيم يا سعفان افندي ••

وظهر في مدخل الشرفة شبح • فتاة تحمل صينية تفوح منها رائحة الشاي المنعنع • انعكس الضوء الصاعد من الفرج على وجهها فوضحت بعض معالمه رغم ظلام الغرفة القابع وراءها ، وجه مستدير ، لونه قمحي، وثمة ملاحة ملحوظة مغلفة بغموض وأشواق • ساوره قلق • وهو يميل قليلا ليتناول قدح الشاي رأى عن قرب ساعدها السوية البضة وكأنها هي التي تنفث رائحة النعناع • وقفت دقيقة او اقل ثم توارت فـــي

الظلام وهي تداري ابتسامة كادت تفلت منها حياء وارتباكا • وساد صمت كأنه الشعور بالاثم ، وتشبع الجو بروح المؤامرة ، وتضاعف قلقه • قال سعفان :

ــ ابنتي ••

هز رأسه اعرابا عن الاحترام :

ــ حصلت على الابتدائية قبل ان تنقطع عن المدرسة ••

واصل هز رأسه في تقدير واعجاب • ترامت اليهما اصوات الجوقة وهي تغني التوشيح • ومضى سعفان قائلا :

ــ البيت هو المدرسة الحقيقية للبنت ••

لم يعلق ، لم يجد ما يقوله ، وضاق في الوقت نفسه بصمته •

ــ ما رأيك في ذلك ؟

ــ أوافقك كل الموافقة ••

ولكنه تذكر جهاد امه الكادح في حياتها المريرة • شعر بأنه يدفع الى مصيدة • بدأ الغناء بصوت المطرب هادئا وخافتا وناعما • وتمتم سعفان :

ــ ما اجمل الصوت !•

ــ نعم •

ــ الحياة جميلة ايضا •

ــ بلا شك •

ــ ولكنها تطالبنا بالحكمة لتجود علينا بحلاوتها ••

ــ أليست الحكمة ثمرة عسيرة ؟

ــ كلا ، هي هبة من الله سبحانه •

قال لنفسه ان الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصيرة • الرجل يحاصره وهو لن يستسلم ، ولكن كيف يفوز بحريته ورضى رئيسه معا ؟! • لم يعد يسمع من الغناء شيئا • سعفان يتابع الغناء بأذنه ويده

وقدمه وينظر اليه بين ذلك متفحصا مستطلعا • وحنق عليه كجلاد ماكر• ورأى ان عليه ان يرد الدعوة بأحسن منها دفاعا عن نفسه المهددة • آلمه ذلك ألما غير هين • انه لا ينفق القرش بغير ضرورة ملحة • وفتح حسابا في دفتر توفير البريد مع اول مرتب قبضه • ولذلك لم يخطر له على بال ان يغير مسكنه او حارته او طعامه • وهو يؤمن بأن الادخار وسيلة هامة من وسائل جهاده الطويل وشعيرة من شعائر دينه ، وأمان ضد الخوف في عالم مخيف • ولكن لا بد مما ليس منه بد • سيرد الدعوة بأحسن منها • وسيتم ذلك في مطعم لا في حجرته المكتظة بالكتب ، الفقيرة في كل شيء عدا ذلك • واذن فسوف ينفق مبلغا جسيما حقا • اللعنة على الحمقى • بات الغناء ضجيجا لا معنى له وتفتحت ابواب الجحيم • والكهل يهز رأسه طربا غير عالم بجريمته ، والدنيا تطلق سخرية من سخرياتها •

- ٨ -

وقبل مضي الشهر دعا الرجل للعشاء في مطعم الكاشف • تناولا سمكا شهيا وحليا بمهلبية • وكان الكهل من السعادة في غاية وخيــل اليه انه يتوقع نزول ملاك السعادة والرحمة • ولم يقنع بالعشاء فيمــا يبدو فاقترح قائلا :

ــ ما رأيك في سهرة في الفيشاوي ؟

وجب قلبه بألم عميق ولكنه تأبط ذراعه قائلا :

ــ يا لها من فكرة رائعة !

وجلسا في المقهى وهو يتذكر عيدا من أعياد الفطر تمزق فيه جلبابه الجديد في معركة بحارة الحسيني ، ضربه ابوه ، واضطر الى استعمال الجلباب عاما كاملا بعد ان رقعته امه • وأزعجه سرور الكهل وانشراحه• انه يتوقع ان يسمع خبرا سارا بلا شك • وها هي فرحة قلقة في أعماق عينيه الشاحبتين ، وها هو يجود بالرضى على كل شيء •• قال :

ــ أأنت سعيد بزملائك في المحفوظات ؟••

ــ أعتقد ذلك •

ــ انهم طيبون حقا ••

ـ اما انت فشاب ممتاز ، هل تعمل محاميا اذا انتهيت من دراستك ؟

ـ كلا ، لكني ارجو تحسين حالتي •

ـ فكرة طيبة • يعجبني طموحك الشريف !

وخرج عثمان من تردده مصمما على النجاة ولو بخنق آمال الرجل • قال :

ـ ان همومي اكبر مما تتصور ••

فرمقه الرجل متوجسا وسأله :

ـ لم كفى الله الشر ؟

ـ لا يهمني الطموح كما تظن ، تهمني اشياء أقل من ذلك بكثير ••

ـ حقا ؟

ـ لولا الظروف القاسية لما فكرت الا في امر بسيط وطبيعي ومعقول وهو ان اكمل نصف ديني !

لم يفلح الكهل في مداراة الخيبة التي خنقته ، وتساءل :

ـ اي ظروف يا ترى ؟

فتنهد عثمان في اسى وقال :

ـ مسؤوليات جسيمة ، نحن ابناء الفقر وهو يصر على مطاردتنا ••

وأطرق وهو يقول بصوت كئيب :

ـ كم كنت أود ••

وسكت كأنما غلبه الانفعال • تراجع الكهل عن ضوء المصباح فمضى في الظل • لا مفر من ذلك ولكن عليه ان يحافظ على صداقته ما وسعه الجهد والحيلة • وجاء صوت الرجل من الظل :

ـ ومتى تستطيع الوقوف على قدميك ؟

فأجاب بنبرة يائسة :

ـ في عنقي صغار وأرامل ، ما انا الا ثور معصوب العينين يدور

في ساقية ..

مات كل شيء . حتى مطارق قطع النرد لم تعد تسمع . عـمـاد يتمتم :

ـ كم كنت أود ..

فلم يعلق الكهل بكلمة . وأراد ان يدفع الحساب ولكن عثمان ابى عليه ذلك ودفعه من جيبه وهو يتمزق . تلاشت البهجة من الجلسة ولم ينفع في احيائها الافتعال . وغادرا المقهى فمضيا مشيا على الاقـدام حتى ميدان باب الشعرية ، وهناك فارقه الرجل الى مسكنه . وجـد نفسه في حال تعيسة من التوتر والقلق . ودهمته موجة مجنونة مـن الاستهتار فدعته الى التبذير اليائس كأسلوب من الانتحار .

وقصد بلا تردد الدرب ليدفن في اعماقه قلقه وأحزانه وعذابـات ضميره . وقال لنفسه بحزن :

ـ حتى اخطاء الانسان يجب ان تكون مقدسة ..

- ٩ -

اعترضت أم حسني طريقه وهو نازل . انها لا تفعل ذلك بـــلا سبب . نظر الى وجهها المخدد بالتجاعيد وشعرها المصبوغ بالحنـــاء وجسمها القوي رغم شيخوختها فتذكر امه ، صافحها وهو يتبســـم فقالت :

ــ عندي خبر ..

ــ خير ان شاء الله .

فقالت وهي تضيق عينها الوحيدة ــ فقدت الاخرى في معركة من معارك الحارة ــ قالت :

ــ لا خير فيه ..

نظر اليها جادا فقالت :

ــ عريس ، وجد عريس في طريقك !

ــ هه ؟

ــ عريس تقدم لسيدة ..

اجتاحه حزن وذهول كأن ذلك لم يكن متوقعا . لم يجد مــــا يقوله .

ــ ترزي بلدي ..

كان يعلم بأن ذلك آت لا ريب فيه . لا يحاول دفعه ولا امل له في منعه . كالموت . ولم ينبس فسحبته من يده الى حجرتها وأجلسته على الكنبة الى جانبها ، وسألته :

ــ ألا يهمك الامر ؟

شعر بألم حاد في أعماق روحه . شعر بأن الدنيا تتلاشى . قال بغضب :

ــ لا تطرحي اسئلة لا معنى لها ..

ــ هدىء خاطرك ..

ــ يحسن بي ان اذهب .

ــ ولكنك لن تتمكن من لقائها .

الدنيا تتلاشى اكثر وأكثر .. قالت :

ــ كان يجب ان تدرك ذلك من نفسك .

ــ لم ؟

ــ أمها تتشدد في منعها من الخروج ، فرجل حقيقي خير من خيال ..

وتمتم بلا وعي :

ــ رجل حقيقي خير من خيال .

ــ انت تحبها ، أليس كذلك ؟

فقال بأسى :

ــ اني احبها .

ــ حكاية محفوظة في حارتنا .

ــ وهي حقيقية .

ــ عظيم ، ولم لم تتكلم ؟

فقال بحدة :

ـ لا استطيع •

ـ اسمع ، توسلت البنت الي أن أبلغك ••

تنهد في يأس كامل فقالت المرأة :

ـ اذهب من توك فاخطبها او دعني اتولى ذلك عنك •

حادث نفسه بأصوات مبهمة كأنما يتكلم لغة مجهولة حتى ذهلت المرأة فقال مواصلا حديثه مع نفسه :

ـ ولن يغفر الله لي •

ـ أعوذ بالله ، أتراها غير اهل لموظف مثلك ؟

ـ لا تتقولي علي يا ام حسني ••

ـ أطلعني على قلبك ، انا امك ••

فقال متنهدا :

ـ لا استطيع ان اتزوج الان •

ـ تنتظرك كما تشاء •

ـ سيطول الانتظار ••

ـ اربطها بكلمة ، هذا يكفي الان ••

ـ كلا ، لست أنانيا ، اني أرفض حرصا على سعادتها •

وهمت بالاسترسال في الحديث ولكنه غادر الحجرة• سار ببطء في الحواري الضيقة • كان يتعذب بعمق ويسلم بمرارة بأنه لن يراها مرة اخرى • ورغم عذابه شعر بارتياح خفي يائس ، وبقدر ارتياحه آمن بأن اللعنة حلت به • انه يحبها ولن تملأ اخرى الفراغ الذي خلفته وراءها في نفسه • وهذا الحب لن يمحى بسهولة ، وسيعلمه كيف يكره نفسه وطموحه ، ولكنه سيصر على التعلق بهما بقوة الكراهية واليأس • ان ما يركبه جنون ، ولكنه جنون مقدس يغلق باب السعادة

باستهانة وكبرياء ويدفعه بقوة في طريق المجد الشاق المحفوف بالاشواك .
ان السعادة تغريه بالتفكير في الانتحار اما الشقاء فهو الذي يحرضه على نشدان الحياة وعبادتها .

ولكن يا للخسارة يا سيدة ..

- ١٠ -

وتقدم في كل شيء ولكن عذابه لم يكد يخف ، ورسخت قدمه في عمله حتى شهد له سعفان بسيوني — رغم اخفاقه معه — بالمواظبة والكفاءة والاستقامة ، وكان يقول عنه :

— انه اول الحاضرين وآخر الذاهبين وفي اوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلى الوزارة ..

وهو يؤدي عمله ، ويؤدي عن المتأخرين اعمالهم ، فالكلام عن نجدته لا يقل عن الكلام عن قدرته . وسار في دراسته بعزم قوي يبشر بنجاح باهر . وأصبح من مدمني التردد على دار الكتب ، يقرأ بنهم شتى الثقافات الى جانب دراسته القانونية الشاقة . اصبح كذلك من الوجوه المعروفة التي ترى في جامع الحسين في صلاة الجمعة فعرف في الحي — كما عرف في الوزارة — بالتقوى والورع . ولكن عذابه لم يكد يخف ، وظلت سيدة مسيطرة تماما على خياله ووعيه حتى قال لنفسه :

— انها الجوهرة الوحيدة في حياتي ..

وفي مواعيد اللقاء يجلس على سلم السبيل الاثري فتلفحه حرارة

الذكريات ويغوص فيها حتى تتجسد له حية ملموسة • في لحظات اشتداد الوجد يتوقع ان يسمع وقع قدميها الخفيفتين ويرى طلعتها المقبلة محفوفة بالشوق والحياء • وحديثها الطويل وعناقها الحار وكل موضع ثمين غسله بقبلاته • ولكنها لا تأتي ولن تأتي • قطعته ولعلها نسيته • واذا خطر ببالها لعنته بما يستحق • ويوما مر تحت نافذتها في ساعة العصاري فخيل اليه ان رأسها لاح لحظة وراء القلة المعرضة للهواء لتبترد ، ولكنها لم تكن هناك او لعلها تراجعت باشمئزاز وعجلة • وقال لنفسه :

ـ مقدس الانسان في عذاباته ••

وقال ايضا :

ـ لا يخلو عمل للانسان من عبادة ••

وصادفها صباح الجمعة في الخيمية بصحبة امها تلاقت عيناهما لحظة ثم حولتهما عنه في غير مبالاة • لم تلتفت وراءها • تجلى له معنى من معاني الموت • كما خرج ابوه من الجنة بارادته • وكما يخوض العذاب بشموخ وكبرياء •

وكان يختلف الى الدرب بحذر وانفعال ويأس • ووثقت الايام علاقته بفتاة تماثله في السن تسمي نفسها قدرية • جذبته بسمرة غامقة ـ مثل سيدة ـ ولكنها أعمق في زنجيتها وبداتها ولم تكن مغرقة في البدانة • ومنذ ساقته قدماه اليها ـ منذ زمن ليس بالقصير ـ لم ينحرف الى سواها • وذكرته حجرتها بحجرته ولكنها اكثر بدائية بأرضها العارية وفراشها المرتفع والمرآة وكرسي وحيد يستعمل للجلوس وكمشجب ، وطشت وابريق • لذلك لم يكن يستطيع خلع بدلته في ليالي الشتاء • ومرت أعوام لم يبادلها سوى تحية القدوم وتحية الذهاب • ورغم تدينه العميق علمته الشراب ، القدر القليل الضروري• وكان قدح نبيذ من نبيذ «السلسلة» الجهنمي ـ بنصف قرش ـ يكفي

لطمس عقله وبعث الجنون في دمه حتى قال لها مرة في نشوة مضحكة :

ـ انت سيدة الكون ..

وكان يتأمل الحجرة العارية ، ويشم البخور ، ويلمح الحشرات . ويتخيل الجراثيم المستكنة ويتساءل أليس هذا الركن الملعون المشتعل بنار الجحيم جزءا من مملكة الله ؟!. ومرة أمطرت السماء وجعجع الرعد فانحبس في الحجرة العارية . خلا الدرب وخفتت الاصوات وساد الظلام. تربعت قدرية فوق الفراش وجلس هو فوق الكرسي الخيزران، وأضاء الحجرة شمعة وحيدة . ولما طال الوقت تناول من جيبه مذكرة مدونا بها ملاحظات من دروسه وراح يقرأها ـ كعادته ـ بصوت مسموع . وسألته قدرية :

ـ قرآن ؟

فهز رأسه بالنفي وهو يبتسم .

ـ مواعيد غرامية ؟

ـ دروس !

ـ تلميذ ؟!.. ولماذا تربي شاربك ؟..

ـ موظف وتلميذ في مدرسة ليلية ..

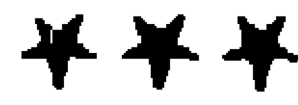
وتذكر سيدة بحنين وأسى . وخطرت له فكرة استراح لها وهي ان المطر المنهمر يغسل الدرب ويجلو وجهه .

وعاد ذات يوم الى الحارة فرأى الارض مفروشة بالرمل امام بيت سيدة والرايات تخفق على الجانبين . دق قلبه دقة النهاية . والتقى بأم حسني على السلم ـ ترى هل تعمدت ان تنتظره ؟ ـ فحياها عابرا ومضى وصوتها يدعو له :

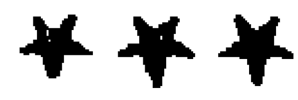
ـ ربنا يحقق مقاصدك ويسعدك ..

لم يستطع ان يركز عقله في دروسه . واقتحمت حجرته الصغيرة

الاصوات ، الزغاريد ، تهليل الغلمان ، موسيقى حسب الله . اجل ..
ها هي سيدة تدخل مملكة رجل آخر ، وتنطوي فترة من الشباب وتدفن .



غادر البيت بتصميم جديد . قال ان الحياة اعظم من جميع آمالها . وأن الخيام أجمل حكمة من المعري . وأن القلب هو المرشد الوحيد . اقتحم الفرح حتى قالوا انه مجنون . وأشار الى سيدة وقال لها «اني أدع لك الحكم» . استجابت رغم الصراخ والعويل لانه في اللحظات الحرجة التي تسبق الاعدام تتعرى الحقائق فتهزم الموت . ومضى بها مخترقا ثلاثة أزقة مارقا من باب النصر الى مدينة الاموات وهما يترنحان من السعادة .



لم تسكت الاصوات والزغاريد والاغاني حتى مطلع الفجر . وكان ينظر الى الكلمات ولا يفقه لها معنى . وشعر بالوحدة فتوغل في عالم مجدب خال من الاصوات والامل . وثقلت عليه المعاناة في الطريق الشاق فتذكر معارك الامم ، ومعارك الجراثيم ، ومعارك الصحة والعافية فهتف :

ــ سبحان الله العظيم !

- ١١ -

حضرة صاحب السعادة المدير العام .

اتشرف بابلاغ سعادتكم بأنني حصلت على ليسانس الحقوق هذا العام ــ من منازلهم ــ استزادة من العلم واستكمالا للوسائل الضرورية للموظف ، مستلهما الهمة من عبقرية سعادتكم ، في ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه .

رجاء التكرم بالعلم والامر بحفظ الشهادة المرافقة بملف خدمتي .

وتفضلوا يا صاحب السعادة بقبول فائق الاحترام .

عثمان بيومي
كاتب الوارد بالمحفوظات

لقد أحرز نجاحا باهرا بالقياس الى زملائه المتقدمين من منازلهم . وسيدور خطابه الموجه الى حضرة صاحب السعادة دورة رائعة تعلن تفوقه على الملأ ، فهو يعرض اولا على رئيسه المباشر سعفان بسيوني ليوقع عليه بالعرض على صاحب العزة مدير الادارة حمزة السويفي ، فهو يسرك في صادر المحفوظات ثم يسرك مرة اخرى في وارد الادارة . بعد ذلك يعرض على حمزة السويفي ليوقع بعرضه على حضرة صاحب

السعادة المدير العام ، فيسرك في صادر الادارة ثم يسرك في وارد مكتب المدير العام ، ثم يقرأه حضرة صاحب السعادة المدير العام ، يقرأه بعينيه ويتسلل الى ذاكرته وربما هز عواطفه ، ثم يوقع عليه بالتحويل الى المستخدمين لاجراء اللازم ، فيسرك في صادر مكتب المدير العام ووارد المستخدمين حيث تتخذ الاجراءات ثم ترسل صورة الى المحفوظات التي صدر منها الخطاب للحفظ في ملف خدمته الاداري ، بذلك تتم الدورة الفلكية ويعلم من لم يكن يعلم •

وثمل بالسعادة يوما • وتتابعت الايام • ماذا بعد ذلك ؟• هل يبتلع الصمت كل شيء ؟• لا شيء يحدث • النار المقدسة مشتعلة في صدره • ومقام الحسين يشهد مناجاته الطويلة • الطريق طويلة ولا خطوة واحدة تبشر بالضياء • وقد انتهى من الدراسة اما اغترافه من بحر الثقافة فلا يتوقف ابدا • انه يشبع بها اشواقه الى المعرفة ويكمل بها ذاته لتكون اهلا للمركز الذي سيشغله يوما باذن الله وفضله ؛ ويتسلح بها في نضاله الطويل المرير في الغابة الرسمية التي يطالب فيها كل ذي شأن بقرابينه • انه لا يملك سحر المال ، ولا يتمتع بامتيازات الاسر الكبيرة • ولا قوة حزبية تسنده • وليس من الذين يرتضون ان يلعبوا دور البهلوان او العبد او القواد ، انه واحد من ابناء الشعب التعيس الذي عليه ان يتزود بكل سلاح ، ويتحين كل فرصة ؛ ويتوكل على الله ، ويستلهم حكمته الابدية التي قضت على الانسان بالسقوط في الارض ليرتفع بعرقه ودمه مرة اخرى الى السماء •

ومن خلال تتابع الايام في مجراها الابدي خلت درجة سابعة بالمحفوظات بنقل شاغلها الى وزارة اخرى • وقال له سعفان بسيوني :

ــ رشحتك للدرجة الخالية فلا يوجد في المحفوظات من هو أحق بها منك ••

فشد على يده بامتنان وهو يود ان يقبله فقال الكهل :

ـ سبعة أعوام مضت عليك في الثامنة ، وقد حصلت في اثنائها على ليسانس الحقوق ، وأثبت بجدارة كفاءة لا نظير لها ..

وضحك الكهل كاشفا عن أسنانه السود المثرمة وقال :

ـ وهي مضمونة لك ان شاء الله فلا رغبة لاهل الوساطات في وظيفة بادارة تسكنها الثعابين والحشرات ..

وطال الانتظار ومضت الايام . وقال لنفسه ها هي سبعة أعوام تمر في درجة واحدة فيلزمني على هذا القياس اربعة وستين عاما حتى ابلغ الامل المنشود . المدير العام الذي أشعل النار المقدسة في قلبه . لم تقع عليه عيناه منذ مثل بين يديه ضمن المستجدين . وان متعة نفسه ان يقف في جانب من الميدان يراقب موكبه وهو يغادر الوزارة في أبهة الملك وقدسيته . هذا هو غاية الحياة ومعناها وجلالها .

واستفحل العمل في الادارة ايام اعداد الميزانية فاحتاج مدير الادارة الى موظفين اضافيين من الاقسام التابعة له فندب عثمان للعمل عن المحفوظات . سر بذلك وقال انها فرصته . وتوثب للعمل بهمة هائلة ، عمل مع المراجعين كما عمل مع وكيلي الادارة ، وشهد اجتماعات مع مدير الادارة نفسه . انفجر كبركان وكأنما كان ينتظر هذه الفرصة مذ اشتعل قلبه بالطموح المقدس . ولم يتردد فوضع نفسه تحت تصرف السادة الرؤساء من مطلع الصباح حتى منتصف الليل . في الظروف الدقيقة الحرجة ينسى كل شيء في الحكومة الا الكفاءة الحقة . والميزانية عمل خطير يتصل بالمدير العام ووكيل الوزارة والوزير ومجلس الوزراء والبرلمان والصحافة ، فلا مجال في ايامها المشحونة بالارهاق لصاحب امتياز ، ولكن يفرض الانتخاب الطبيعي نفسه ويتقدم الأكفاء ويعترف بالقيمة الذاتية حتى ولو لم يقدر لها حسن الجزاء . وقد لفت عثمان اليه الانتباه وحاز الثقة الكاملة ، وتجلت قدرته الخارقة على العمل ، كما تجلت درايته باللوائح والقانون . ولم يقنع بما أحرز

من نجاح فتطوع سرا لكتابة مشروع بيان الميزانية الذي يكتبه عـادة مدير الادارة بنفسه • وهيأ له العمل فرصة الانفراد بمدير الادارة حمزة السويفي فلما فرغ من عرض اوراقه قال له بأدبه الجم :

ـ سيدي المدير ، اسمح لي ان اقدم لكم بعض الملاحظات التـي قيدتها اثناء العمل لعلها تنفع عند النظر في تحرير بيان الميزانية !

فنظر اليه حمزة السويفي باستخفاف مشوب بالعطف وقال :

ـ انت شاب ممتاز كما يقال عنك ••

ـ أستغفر الله يا فندم •

ـ على فكرة مبارك فقد تمت اليوم الموافقة على ترقيتك الـى السابعة ••

تمتع عثمان بلحظة انتصار سعيدة فقال بامتنان :

ـ بفضل الله وفضلكم !

فقال مدير الادارة مبتسما :

ـ مبارك ، اما بيان الميزانية فشيء آخر !

فقال باستماتة :

ـ عظم الله قدرك ، لا جرأة لي على الاقتراب من بيان الميزانية ، ولكن عنت لي ملاحظات في اثناء العمل، ملاحظات مجتهد درس القانون والمالية ، فطمع ان تكون في الخدمة عندما تحتشدون لوضع البيـان الخطير •

وتناول الرجل «الملاحظات» وراح يقرأها والآخر يتابعه باهتمـام مركز خيالي • لقد سيطرت عليه الملاحظات ، هذا واضح • ثم قـال بهدوء سطحي :

ـ أسلوبك جيد ••

ـ شكرا يا سيدي ••

ـ يخيل الي انك قارىء ممتاز •

ــ أعتقد ذلك يا سيدي •

ــ ماذا تقرأ ؟

ــ الادب ، سير العظماء ، الانجليزية والفرنسية ••

ــ هل لك قدرة على الترجمة ؟

ــ اني امضي اوقات فراغي في مطالعة القواميس •

فضحك حمزة السويفي وقال :

ــ شيء جميل ، وفقك الله ••

وأذن له في الانصراف ولكنه استبقى «الملاحظات» عنده • وغادر عثمان حجرته ثملا بالافراح ؛ يؤمن بأنه نال من ثقته ما هو أثمن من الدرجة السابعة نفسها •

وعندما طبع مشروع الميزانية بعد ذلك بأشهر هرع عثمان الى مقدمة الميزانية فقرأ البيان الذي كتبه بخط يده عدا تغيير طفيف لا يقدم ولا يؤخر • سعد بذلك سعادة كبيرة ؛ امتلأ ثقة بنفسه وبمستقبله . واستوصى بذكائه فلم يفش سر البيان لأحد •

وما لبث ان صدر قرار بنقله من المحفوظات الى ادارة الميزانية •

ليلتها وقف وراء نافذة حجرته ينظر الى الحارة الغارقة في الظلام• ورفع عينيه الى السماء فرأى النجوم الساهرة • مستقرة فيما يبدو ولكن لا شيء جامد في الكون • وقال ان الله خلق النجوم الجميلة ليحرضنا على النظر الى أعلى • وان المأساة انها ستظل يوما من عليائها فلا تجد لنا من اثر • ولا يتحقق معنى لوجودنا الا بالعرق والدم •

- ١٢ -

قال له سعفان بسيوني :

ـ سأحزن لغيابك عن المحفوظات بقدر ما انا سعيد بك •

وذاب عثمان في الجو العاطفي باخلاص وقتي فدمعت عيناه وتمتم:

ـ لن أنساك ابدا يا سعفان افندي ولن انسى عهد المحفوظات •

ـ ولكني سعيد لانك سعيد ••

فتنهد عثمان وقال :

ـ السعادة عمرها قصير جدا يا سعفان افندي •

ولم يفهم سعفان قوله ولكن الآخر كان يعيشه • كان يحسل الزمن على ظهره لحظة فلحظة ويعاني الصبر نقطة نقطة • وسرعان ما نسي تماما انه رقي الى السابعة او انه يعمل في ادارة الميزانية • كان يعمل بجنون في الوزارة ، ويتبحر في المعرفة في حجرته الصغيرة • وبين هذا وذاك يقول بجزع :

ـ العمر يجري •• الشباب يجري •• الايام لا تريد ان تستريح••

وما زال في اول الطريق الطويل • وكان ولعه بالادخار يزداد مع الايام . واستمساكه بمسكنه البدائي يقوى ويشتد • المال حصن ،

هكذا يشعر • وهو مهر عند الضرورة لعروس الاحـــلام • وعروس الاحلام هي التي تفتح مغالق الابواب وتستنزل جوهرة المستقبل مـــن معتصمها • وللموظفين في ذلك اقوال مأثورة وحكم وأمثال • العروس الجميلة اما ان تكون هدية مجد مبكر او ذريعة الى المجد المستعصي • والطريق يبدو شاقا وطويلا فهو في حاجة الى اسعاف • وهم يقولون :

ـ سعادة المدير العام ارتقى الى مركزه الفريد وهو شاب تقريبـا بفضل السياسة والاسرة فتزوج من فتاة من اسرة تعد من ملكـــات الجمال ••

ويقولون ايضا :

ـ اما الوكيل الاول للادارة فترقى بفضل زوجته . او اسرة زوجته وهو الاصح ••

وهو يزود نفسه بكل سلاح فلا عيب اذا استعان بعد ذلك بعروس كريمة ، والا فكيف يقف ضد تيار الزمن المتدفق بلا رحمة ؟!• ولذلك راح يترجم للصحف والمجلات ليزيد من دخله ويزيد بالتالي مـــــن مدخراته • ونجح في ذلك نجاحا لا بأس به • ولم ينفق مليما جديدا للتخفيف من تقشفه • ولم يعرف من عالم اللهو الا زيارته الاسبوعيـة لقدرية في الدرب وشرب قدح النبيذ الجهنمي بنصـف قرش • قالت له مرة :

ـ انت لا تغير هذه البدلة ابدا ، هي هي صيفا وشتاء ، أعرفها من سنوات كما اعرفك ••

فقطب ولم يعلق فقالت :

ـ لا تغضب ، انا احب الضحك ••

فسألها بسذاجة :

ـ هل جمعت ما اعطيتك من نقود طيلة السنين الماضية ؟

فقالت ساخرة :

ـ عشقت رجلا مرة فسرق مني مائتي جنيه ، هل تعرف معنى مائتي جنيه ؟

تخيل المصيبة فاستعاذ بالله وقال لنفسه ان كوارث الدنيا لا تعد ولا تحصى ، وسألها :

ـ وماذا فعلت ؟

ـ لا شيء ، ربنا يحفظ صحتنا فهي الاهم ..

قال لنفسه انها مجنونة بلا شك ، ولذلك فهي بغي . ولكنها كانت الترفيه الوحيد في حياته الشاقة ، ووهبته عزاء لا بأس به . وأحيانا كان يحن الى الحب وأيامه وسحره الذي يغير مذاق الدنيا . ويتذكر سيدة وسلم السبيل المهجور والصحراء ، ولكنه يستسلم في النهاية لدعابات الدنيا القاسية ، ويرضى عن نفسه المعذبة لاختيارها الطريق العسير المكلل ببركة الله ومجده العالي . وقالت له قدرية ذات ليلة :

ـ ألا تحب ان نمضي صباح الجمعة معا في نزهة ؟

فدهش وقال :

ـ اني اجيئك كاللص متخفيا في الظلام ..

ـ مم تخاف ؟

ماذا يقول ؟.. انها لا تفهم شيئا . وقال معتذرا :

ـ لا يجوز ان يراني احد ..

ـ هل ترتكب جريمة ؟

ـ الناس ...

فقالت هازئة :

ـ انت الثور الذي يحمل الارض على قرنيه ..

انه ذو دين وخلق وسمعة طيبة يجب المحافظة عليها . وقالت له باغراء :

ـ ممكن ان تحتكرني ليلة كاملة ، يمكن الاتفاق على ذلك ..

فسألها بحذر :

ـ والثمن ؟

ـ خمسون قرشا ..

وفكر باهتمام . سيهبه ذلك راحة حقيقية ولكن الثمن فادح . انه في حاجة الى الراحة . قال :

ـ فكرة طيبة ولتكن مرة في الشهر ...

ـ هل تكتفي بمرة واحدة في الشهر ..

ـ ربما اجيء غيرها ولكن بالطريقة العادية ..

واعترف بأنه لا غنى له عنها . انها تماثله في السن . ولكن يبدو انها غافلة عن الزمن ، وعن اثره السريع فيها . وهي تعيش بلا حب ولا مجد ، وكأنها تؤاخي الشيطان في غضبها . وكم غاظه ان تعترف له مرة بأنها اشتركت في مظاهرة فهتف محتدا :

ـ مظاهرة !

ـ مالك !.. نعم مظاهرة .. حتى هذا الدرب أحب الوطن يوما ما ..

وقال ان الجنون منتشر اكثر مما تصور . الاهتمامات السياسية تثيره وتدهشه . وهو يصر على عدم الاكتراث بها . ويؤمن بأن للانسان طريقا واحدة ، وان عليه ان يشقها وحيدا مصمما بلا احزاب ولا مظاهرات ، وان الانسان الوحيد هو الخليق بالشعور بربه وبما يطالبه به في هذه الحياة ، وان مجده يتحقق في تخبطه الواعي بين الخير والشر ، ومقاومة الموت حتى اللحظة الاخيرة .

- ١٣ -

واطلع عثمان بيومي ذات يوم على اعلان له شأنه • اعلنت الوزارة عن حاجتها الى مترجم للغتين الانجليزية والفرنسية بمكافأة ٣٥ جم ، وحددت يوما لامتحان مسابقة • اشترك في المسابقة بلا تردد وبلا تفكير شامل • وأسفرت النتيجة عن اختياره مما زاد ثقتـــه بنفسه واعتزازه بمواهبه • واستدعاه حمزة السويفي الى مكتبه ــ وكانت الوظيفـــة الجديدة في مكتبه ــ وقال له :

ــ أهنئك على نجاحك الذي يقطع بتعدد قدراتك •

فشكره عثمان بأدبه المعهود فقال الرجل :

ــ ولكنها وظيفة ذات مرتب ثابت وسوف تخرج بها من الكـــادر العام فهل فكرت في ذلك ؟

لم يفطن في الواقع الى ذلك فسرعان ما فتر حماسه لمرتبها الضخم نسبيا وقال :

ــ الحق اني لا ارغب في الخروج من الكادر العام ••

ــ هذا يعني ان نعين التالي في الترتيب ؟

فطرأت على ذهنه فكرة طيبة فقال :

ـ ألا يمكن ان ارقى الى الدرجة السادسة على ان تضاف الـــى اعمال الترجمة وبذلك أوفر للميزانية مبلغا لا بأس به ؟

فتفكر مدير الادارة مليا ثم قال :

ـ المسألة تحتاج الى مراجعة المستخدمين والادارة القانونية ..

ـ ليكن يا سيدي ..

فضحك حمزة بك وقال :

ـ انك طموح وحكيم ، ارجو ان يكون اقتراحك مقبولا ..

وتقررت ترقيته الى الدرجة السادسة بمرتب قدره خمسة وعشرون جنيها . ورغم تضحيته بعشرة جنيهات الا انه فاز بترقية ما كان يبلغها قبل سنوات وسنوات ، فضلا عن الاهمية التي اختص بها بعمله المزدوج. تمتع بسعادة قصيرة كالعادة . لم يعرف السعادة الا خطفا مثل لقاءات الطريق العابرة . وعاد يقيس الطريق الطويلة ويئن تحت وطأة لانهائيتها. ما جدوى الدرجة السادسة وهو يوشك ان يودع الشباب ؟. ويوشك ان يلج مرحلة جديدة من العمر ؟. وقبله سعفان بسيوني وقال له :

ـ انك تقفز بقوة مليحة يا ولدي ..

فقال بأسى :

ـ ولكن الايام اسرع من الخيال ..

ـ هي كذلك كفاك الله شرها ..

فرنا الى وجهه المتغضن وسأله :

ـ هلا حدثتني عن طموح شبابك ؟

ـ انا ؟! ، له الحمد ، كانت رئاسة المحفوظات أبعد من خيالي ..

ـ ألم تحلم بأن تكون المدير العام ؟

فأغرق الكهل في الضحك حتى دمعت عيناه ، ثم قال :

ـ نحن ابناء الشعب لا نطمع فيما يتجاوز رئاسات الاقسام .

انه مخطىء . انما يصدق كلامه على وظائف الوزراء والوكلاء ، اما

وظيفة المدير العام فلا تستعصي على ابناء الشعب • هي املهم المنشود والاخير وبخاصة الافذاذ منهم الذين يعدون انفسهم لذلك المجـــد العظيم • بيد ان الايام تمر بلا توقف ، وفي غفلة ونعومة • ولا قيمة لدرجة المدير العام اذا لم يتح لصاحبها البقاء فيها اعواما حتى ينعم بها وينعم بالدنيا في ظلها ويحقق باسمها أجل الخدمات للجهاز المقدس الذي يسمونه الحكومة •

ومتى يكمل نصف دينه ؟ قبل بلوغ الامـــل ام بعده ؟• يجب ان يكوّن اسرة وينجب ذرية والا حقت عليه اللعنة • فاما العروس التـي ترفع الى العلا واما العلا الذي يحظى بالعروس الباهرة • ومن شـــدة معاناته للعذاب يحن احيانا للهدوء والخمول ويتطلع الى الجهاد الشاق الذي يهب الحياة معناها الوحيد ، وعذابها المقدس •

وسمع ذات يوم ان مدير الادارة حمزة السويفي يشكو ضعف نجله في اللغات الاجنبية فاقترح عليه ان يساعده • وتردد الرجل قائلا :

ـ الاوفق ان احضر له مدرسا خاصا حرصا على وقتك •

فقال له بأسلوبه المختار :

ـ لن أغفر لسعادتك هذا القول ••

وتردد على بيت المدير فقدم للشاب مساعدة فذة كان لها اثرها في انجاحه • وفكر المدير في تقديم مكافأة له فتراجع كأنما يجفل من نـار وقـال :

ـ لن أغفر لسعادتك هذا ايضا ••

وأصر على موقفه حتى سلم الرجل ، فقال له بنبرة الممتن :

ـ لا زلت اسير فضلك وتشجيعك ••

على انه شعر في اعماقه بألم يناسب المبلغ الذي رفضه بشهامته • وثمة خيبة اخرى عاناها في تردده على بيت المدير : فقد حلم بأن يجد هناك عروسا «مناسبة» ومن يعلم ؟•• وحلم ايضا بأن خدماته قد تشفع

له عند حمزة بك فيغضي عن وضاعة اصله ، ويقبله في طبقة جديدة تمهد له السبيل الى التقدم • ولكن الحلم لم يتحقق ، ولم يصادفه في تردده الا الذكور !• سعفان بسيوني ما كان يهمه اصله فهما من اصل واحد تقريبا ومنبت متشابه ولكن اي فائدة كان يرجوها من الزواج من كريمته ؟• لا شيء الا الذرية والمتاعب والفقر • ولا حب ايضا • فهو لم يحب الا سيدة ، وقد مات قلبه مذ سلاها ، ولكن المتطلعين الى المجد في طريق الله لا يحفلون بالسعادة •

وتمضي الايام ، وستمضي ابدا ، بصيفها اللافح وخريفها الحالم وشتائها القاسي وربيعها الفواح ، وسيظل عزيمة مثابرة وهمة متصاعدة وقلبا معذبا وأشواقا طاحنة •

- ١٤ -

وزارته ام حسني كعادتها بين الحين والحين . اهدته برطمانا من الليمون المخلل وجلست على الكنبة وهي تنظر اليه باهتمام أثـــار فضوله . ضربت على ركبتها فجأة وقالت :

ـ تحزنني وحق الحسين وحدتك ..

فابتسم بلا اكتراث فقالت :

ـ أنسيت انك تتقدم في العمر ؟

ـ كلا طبعا يا ام حسني ..

ـ وانه لا يوجد ما هو أغدر من السنين !

ـ صدقت .

ـ اين الذرية لتؤنس وحدتك ؟

ـ في عالم الغيب .

وصمت قليلا حتى قال ضاحكا :

ـ طبع المهنة يتحرك فيك يا ام حسني ..

فضحكت وقالت :

ـ اسمع ، عندي شيء ثمين ..

رغم موقفه الحاسم جذبه الحديث باغراءاته العذبة المجهولة . قال :
ــ دائما عندك شيء ثمين .
فقالت بأمل :
ــ حلوة .. ارملة .. متوسطة العمر . ولكنها عاقلة ، بنت المرحوم شيخ الحارة ..
ــ هه !
ــ لها بنت وحيدة في الرابعة عشرة !
ــ اذن هما امرأتان لا امرأة واحدة ..
ــ ستذهب البنت الى بيت عمها .. لا تحمل هما من هذه الناحية ..
ــ عظيم .
ــ وهي صاحبة ملك !
ــ حقا ؟!
ــ بيت في برجوان ... في حوشه شجرة توت ..
نظرت اليه ببصرها الضعيف لترى اثر كلامها ، فتوهمت رضاه ، وقالت :
ــ ستراها بنفسك ..
وبارشاد من ام حسني رآها في السكة الجديدة . رآها ترتدي معطفا ولكن وضح له ان مشيتها المتثنية الوانية تربت وترعرعت في الملاءة اللف . مائلة للقصر وبدينة ، ذات وجه ريان وشعر اسود . نادت فيه رغبة بدائية . مثل قدرية . قال انها أنظف ربما ولكن متاعبها اكثر بما لا يقاس . وشعر برثاء نحو ام حسني التي تجهله كل الجهل رغم طول المعاشرة . من اين لها ان تفهم معنى مراجع بادارة الميزانية ومترجم ؟. مأساة الآدمية انها تبدأ من الطين ، وان عليها ان تحتل مكانتها بعد ذلك بين النجوم .

وسألته ام حسني :
ــ ما رأيك ؟
فأجاب باسما :
ــ سيدة ممتازة •• ما زالت استاذة !
ــ هل أكمل ما بدأت ؟
فأجاب بهدوء :
ــ كلا •
ــ ألم تقل انها سيدة ممتازة ؟
ــ ولكنها ليست بالزوجة الصالحة لي •
وأثبت العجوز انها أعند مما يتصور فجاءته يوما وهي تقول :
ــ من المصادفات السعيدة ان ست سنية جاءت تزورني ••
فتحركت الرغبة البدائية واستسلم لضعف طارىء فذكرته ام حسني بقولها قائلة :
ــ جاءت تزورني ••
فقال بخبث :
ــ لعلها تزورني ايضا •
فقالت وهي تمضي :
ــ اذا شئت فانزل انت ••
ولم يتردد فنزل • وغلب الصمت فانفسح المجال لأم حسني فراحت تتكلم بلا توقف • وتذكر عثمان انه لم يتكلم كلاما له معنى الا مع سيدة • واضطر ان يقول :
ــ شرفتنا ••
فهمست :
ــ متشكرة ••
ــ الجو بارد اليوم •

ـ نعم .

وسألتها ام حسني :

ـ هل انتهيت من تبييض بيتك ؟

فأحنت رأسها بالايجاب .

حاولت ايضا استدراجه للحديث عن وظيفته ولكنه لزم الصمت . ورغبته تأججت ولكن بلا امل . وتحركت سنية حركة خفيفة تنبىء عن رغبتها في الذهاب فقام من فوره ، سلم وذهب . وبدلا من ان يصعد الى شقته هبط أسفل السلم مضمرا خطة تتسم بالجرأة . سمع أقدامها وهي تتحرك على السلم نازلة . دهشت لمرآه فقال متظاهرا بالدهشة كذلك :

ـ فرصة طيبة ..

أوسع لها ولكنه همس وهي تحاذيه :

ـ تفضلي لشرب فنجان شاي فوق ..

فقالت بعجلة :

ـ شكرا ..

ـ تفضلي ، عندي ما اقوله ..

فقالت باحتجاج :

ـ كلا .

ومضت مسرعة ما أمكنها ذلك . قال وأطرافه ترتعش بالرغبة انه أسرع ، كيف تصور انها يمكن ان تقبل ؟ ، ولكنها الرغبة وقلة الصبر والحيلة . وصعد خجلان غاضبا . وقال انه سيظل مراهقا حتى يستقر في بيت محترم .

- ١٥ -

حالته المالية تتحسن يوما بعد يوم ، استحق علاوة ، وعائده من الترجمة يتزايد ، ولانه لا ينفق الا ما تحتمه الضرورة فرصيده في البريد يرتفع باستمرار • وهمته في العمل لا تهن ، وعلاقته بمدير الادارة حميمة كأنها الصداقة ، ويوما قال له :

ـ أبدى سعادة المدير العام اعجابه بأسلوبك في الترجمة ••

فاجتاحته موجة فرح حتى اغرقته ، وأيقن بأنه لن ينام من الليل ساعة • طبعا سعادته لا يتذكره ، ولكنه بات يعرف الاسم وشخص المترجم المعنوي • قال مدير الادارة :

ـ سعادة المدير مترجم كبير ، ترجم كثيرا من الكتب الهامة فهو يقدرك عن بينة !

وتمتم شاكرا ثم قال :

ـ انما نلت تقدير سعادته بفضل رضاك عني ••

ابتسم المدير وقال بنبرة مبالغة في الود :

ـ دعيت لالقاء محاضرة في جمعية الموظفين ، وقد سجلت نقاطها، فما رأيك في ان تكتبها بأسلوبك الممتاز ؟

فقال بحماس :

ــ انها لسعادة كبرى يا سيدي المدير •

انه يتمنى لو يكلف كل يوم بعمل كهذا • ان عملــــه في الادارة ــ على ضخامته وتقدير الجميع له ــ لن يكفي وحده • فلا أقل مــن تقديم الخدمات للرؤساء ، واشعارهم بأهميته وفوائده الشريفة • ولعل ذلك يقلل من جزعه لقلة ما ناله بالقياس الى ما يطمح اليه • ولكنه عزاء يتزود به في طريقه الطويل • وفي الليل غشيته كآبة بلا مقدمـــات وهتف :

ــ يا لي من مجنون ، كيف أتصور انني سأبلغ يوما مرادي ؟!

وحسب ما ينقصه من درجات ، الخامسة والرابعة والثالثة والثانية والاولى ، قبل ان يتبوأ ذروة المجد !• حسب ذلك وما يقتضيه مـــن سنوات العمر فدار رأسه وداخله شعور عميق بالاسى • وقال انه يجب ان يحدث شيء كبير ، وان حياته لا يمكن ان تضيع هدرا • وكان على موعد مع سعفان بسيوني في المقهى فارتدى ملابسه وغادر الشقة • وجد ام حسني في انتظاره امام شقتها فقالت له :

ــ عندي ضيوف يجب ان تسلم عليهـــــم ، عندي سيدة وأم سيدة ••

دخل وسلم • دخل كالخائف ولكن سرعان ما ادرك ان كل شيء قد انتهى وانقضى • لم يلمس لمحة جفاء او عتاب واحدة ، ولكنه رأى نظرة محايدة لا تكلف فيها ولا التماعة تذكر فأيقن من سقوط الماضي في هوة الموت اللانهائية • وضاعف من احساسه العميق بالزمن ترحيب الام به ترحيبا صافيا بلا شائبة • رأى الموت يفترس قيمة عزيزة ظــن بها الخلود والابدية فاذا بها ذكرى مجردة تكاد تخرج من نطاق التاريخ نفسه كأنها خروج آدم من جنة الخلد • وها هي سيدة تميل الى البدانة والبلادة ، ذكرته بقدرية ، فأمعن في الاضطراب ورأى اعلى ملاءتها قد

هبط عن رأسها فطوق منكبيها ، فانطلق الرأس والعنـــق في حرية ، وتراجع منديلها المنمنم عن جبهة لامعة ومقدم شعر مفروق ، اما الألق الذي ألف ان يطالعه في عينيها فقد استقر وانطفأ . تمت المقابلة في جو محنط وغربة ساخرة ، وعبثا حاول ان يجد فوق الشفتين الغليظتين اي اثر لشفتيه او اسنانه . مكث ما تقتضيه المجاملة ثم ذهب بقلب يخفق بالابتهالات للمجهول الغامض الفتاك ذي الابتسامة الناعمة القاسية .
ذهب الى رئيسه القديم لقضاء سهرة ودية لمناسبة احالته على المعاش بعد ايام معدودات . امسى الكهل عودا هزيلا ، هلكت آخر شعرة فـــي رأسه ، لا بسبب الكبر ولكن لمرض في المعدة ، ولكنه ظل طيبـــا مستسلما كالعهد به . ووضح انه يستقبل نهاية خدمته بكآبة وحــزن وتشتت فمضى يجامله ويقول :

ــ أتمنى لك راحة سعيدة مديدة ..

فقال الكهل وهو يضحك ضحكة لا معنى لها :

ــ لا أدري كيف تكون الحياة بعيدا عن المحفوظات .

ثم وهو يتنهد :

ــ ولا هواية لي ، وهذا هو المزعج حقا ..

ــ ولكنك محبوب ، الجميع يحبونك ..

ــ نعم ، ولم تعد لدي واجبات عائلية بل انجاز ، ولكنني خائف .

وجعلا يحتسيان الشاي وهو يسترق منه النظر برثاء حتى رجـــع يقول ــ الرجل ــ :

ــ أذكر يوم التحاقي بالخدمة كأنه الامس ، انه يوم لا ينسى مثل ليلة الدخلة ، أذكره بكل تفاصيله ، كيف مر ذلك العمر بهذه السرعة ؟!

فانقبض قلب عثمان وتمتم :

ــ نعم كأشياء كثيرة ..

فابتسم اليه كأنما يفتتح بالابتسامة عهدا جديدا وسأله :

ـ وكيف حال أعبائك العائلية ؟

تذكر ادعاءاته الكاذبة فقال :

ـ ما زال الحمل غير خفيف ..

فرنا اليه بمودة وقال :

ـ تسلمتك غلاما كبيرا ليس الا ، وها انت اليوم رجل كامل ، وعما قليل ... ، ولكن ما علينا ، المهم ألا يسرقك الزمن ، خذ بالك بكل قوة ..

ـ عظيم ، وهل يجدي ذلك ؟

ـ على الاقل لا يجوز ان يفوتك القطار ..

ـ هل تقصد الزواج ؟

ـ كل شيء ، دائما اراك في حال تأهب واستعداد ، لأي شيء ؟ وحتى متى ؟

ـ ولكن هذه هي طبيعة الحياة ..

فلوح الرجل بيده محتجا وقال :

ـ كلنا يتكلم عن الحياة بثقة كأننا يعرفها حق المعرفة ...

ـ لا مفر من ذلك ..

ـ لولا وجود الله سبحانه وتعالى لكانت لعبة خاسرة لا معنى لها ..

ـ من حسن حظنا انه موجود وأنه أعلم منا بما يفعل ..

فقال الكهل بعمق :

ـ الحمد لله ..

وصمتا وتكلما ثم صمتا وتكلما حتى ان وقت الذهاب . شعر عثمان بأنه لن يراه مرة اخرى . ولم تكن تربطه به الا زمالة قديمة واحساس بالواجب ولكنه وجد نحوه ـ في لحظته ـ اسى غير قليل . قال الكهل وهو يصافحه :

ـ أتوقع ألا تنسى ؟

فقال بنبرة أحر من قلبه :

ـ معاذ الله ••

فقال الرجل برجاء :

ـ النسيان هو الموت •

ـ مد الله في عمرك •

ولم تكن لديه نية لزيارته ، ولا هو جاء لتوديعه بدافع حقيقي من عواطفه ولكن خوفا من ان يتهم بالجحود ، ولذلك كربه ضميره وورعه الديني ، ومضى في طريقه لا يرى شيئا ، ورغما عنه تركز تفكيره في الدرجة الخامسة التي ستخلو بعد ايام •

وكانت مكانته قد تدعمت لدى مدير الادارة فلم تعترض سبيله عقبة ذات وزن •

ورقي الى الدرجة الخامسة في نفس الشهر مع نقله رئيسا للمحفوظات •

- ١٦ -

هبة قيمة تتخلق في الفراغ المشحون بالصبر • الوثبة الجديدة ترقية حقيقية ، وامتيازها الخطير ان رئيس المحفوظات يعرض بنفسه الخطابات الهامة على حضرة صاحب السعادة المدير العام ليتلقى توجيهاته وينفذها في سرية تامة • رضي الله عنه اخيرا ففتح له الباب العالي الموصل الى الحضرة الادارية العليا • وهي فرصة سلطانية تطالبه باستغلال جميع ما تمرس به من خبرة وثقافة ولباقة واخلاص • ها هي الحجرة المترامية كسيدان التي يحلم بأن يحكم منها ذات يوم • الحلم الـذي يجب ان يتحقق ولو ضحى على مذبحه بجميع القرابين ، الحلم المضنون به على غير اهله من الاكفاء الذين يشترونه بسرات الدنيا الرخيصة العابرة •

وتفحص الحجرة بعناية بطولها الطويل وعرضها العريض ، سقفهـا الابيض الأملس ، ونجفتها الكرستال ، وجدرانها المورقة ، مدفأتهـا الموشاة بالقرميد ، بساطها الازرق الذي لم يتخيل امكان وجود بساط في طوله وعرضه ، وطاولة الاجتماعات ذات الغطاء الاخضر ، والمكتب المتصدر بأرجله الغليظة الملتوية وسطحه البلوري ، وتحفه الفضية من وراقات ومحابر وأقلام وساعة وسومان ونافضة وعلبة خشبية للسجائر

من خان الخليلي .

وتهيأت فرص لاستراق النظر الى المدير السعيد وهو مستقر فوق مقعده الكبير ، يطالعه بعينين داكنتين حادتين ووجه حليق ، وطربوش غامق الاحمرار ، ورائحته الزكية ، وشاربه الاسود المتوسط الطـــول والارتفاع ، وهالة الصحة التي تطوقه ، وبداته المتوسطة وان لم يعرف على وجه الدقة طوله ، وتحفظه الراسخ المهيب الذي يجعل من صداقته مطلبا عزيز المنال .

ها هو يقف في حضرته ، في متناول أنفاسه ، في مجال رائحتـــه الزكية ، يكاد يسمع نبضه ، ويقرأ افكاره ، ويستلهم رغائبه ، وينفـذ — قبل البوح — آوامره ، ويقرأ المستقبل على ضوء ابتساماته ، وقرة عين حلمه الابدي ان يجلس ذات يوم مكانه .

انحنى بأدب وورع وقال :

— صبحك الله بالسعادة يا صاحب السعادة ..

فرفع اليه بصره مغمغما برد ما لتحيته ، فقال الآخر يقدم نفسه :

— عثمان بيومي رئيس المحفوظات .

فقرأ في ارتفاع حاجبيه المستقيمين ابتسامة لم ترتسم على شفتيه ، قال مستزيدا من تقديم نفسه :

— الجديد يا فندم .

— والمترجم . أليس كذلك ؟

فقال بقلب خافق :

— نعم يا صاحب السعادة .

فقال بصوت منخفض :

— أسلوبك جيد ..

— انه لشرف عظيم هذا التشجيع ..

— هل لديك مراسلات هامة ؟

راح يفتح المظاريف برشاقة ويعرض الخطابات ، ويتلقى في دقـــة التوجيهات • انحنى مرة اخرى ثم غادر الحجرة ثملا بالافراح • فكر في طريق عودته الى المحفوظات بأن حمزة السويفي ــ يتراجع ــ في حياته ــ الى الظل حتى يدركه الظلام الذي ابتلع سعفان بسيوني ، وان مستقبله اصبح منذ الساعة بيد حضرة صاحب السعـــادة بعد الله ذي الجلال • وقال لنفسه :

ــ احذر يا عثمان مغبة السير الرتيب ، لا بد من وثبة او وثبات•••

وقال ايضا :

ــ سعفان بسيوني قضى نصف مدة خدمته في الدرجة التـــــي اسلمته الى المعاش !

وهو يحفظ عن ظهر قلب ان للادارة وكيلين ولكن الوثبة لن تأتي الا عن طريق حمزة السويفي ، بأن يرقى او يحال الى المعاش او ••• يموت !!• وامتعض من نفسه كما يحدث له كثيرا ، وابتهل الى اللـــه قائلا :

ــ اسألك اللهم العفو والسماح !

وتساءل :

ــ لماذا خلقتنا على هذه الصورة الفاسدة ؟

قل ان يرضى عن طبيعته ولكنه يسلم بواقعها ، ويؤمن بأن طريقه المقدس تتلاطم على جانبيه امواج الخير والشر ، وان شيئا لا يمكن ان ينال من قدسيته سوى الضعف والخور والقناعة والاستسلام للمسرات السهلة وأحلام اليقظة •

ــ اغفر لي فذنبي انني احب المجد الذي بثثت حبه في نفسي يا ذا الجلال ••

وساءل نفسه بتصميم :

ــ كيف تقنع حضرة صاحب السعادة بفوائدك ؟•• هذه هـــي

المسألة .

كيف ومتى يتاح له تقديم الخدمات دون انحراف أو خزي ؟ . وهو دائن لا مدين كما فعل مع حمزة السويفي ؟ ، وفي نطاق الكبرياء والشموخ وان يكن في الحدود الرسمية بأدبها المعروف وكلماتها المعسولة ؟

ـ ان جهادي شريف اما العواطف والافكار فهي ملك لله وحده ..

انه يؤمن بأن الله خلق الانسان للقوة والمجد . الحياة قوة . المحافظة عليها قوة . الاستمرار فيها قوة . فردوس الله لا يبلغ الا بالقوة والنضال .

وحانت فرصة لا بأس بها عندما منح حضرة صاحب السعادة بهجت نور المدير العام نيشان النيل . حبر مقالة في تهنئته نشرتها له صحيفة يمدها عادة بمترجماته . نوه فيها بالحزم والخلق والدين والادارة والمثالية ، قال انه مثال للمدير الوطني الذي ظن يوما انه لا يمكن ان يقوم مكان المدير الانجليزي .

وعندما دخل الحجرة العصماء لعرض البريد ابتسم صاحب السعادة له لاول مرة ، وقال له :

ـ اشكرك يا عثمان افندي ..

فقال وهو ينحني :

ـ الشكر لله يا صاحب السعادة ..

ـ اما أسلوبك فمما تغبط عليه .

وآمن بأنه ليس بالنبيذ الجهنمي وحده يسكر الانسان . ولكن السكر لا يدوم . وكثيرا ما يعقبه خمار . ويخيل اليه ان عجلة الايام تزيد من سرعتها . غاية ما يذكر ان الزمان لم يكن موجودا . كانت حارة الحسيني مكانا صرفا . لا خطورة للدرجة الخامسة في حياة رجل يتوسط العمر . رجل يرفع رأسه دواما نحو النجم القطبي . يحبس

نفسه في حجرته الصغيرة المكتظة بالكتب • خير ما في حياته من طعام لحمة الرأس او الكباب في المواسم السعيدة • ولا يعرف من مسرات الدنيا الا النبيذ الجهنمي وقدرية الزنجية في الحجرة العارية •

انه بحاجة الى دفء انساني حقيقي ، الى عروس وأسرة • لم يعد يحتمل ان يحترق في الحياة وحيدا ••

ما أحوجه الى انيس في هذا الكون المكتظ بملايين الاكوان !••

- ١٧ -

دعاام حسني لزيارته • صنع لها القهوة بيده على موقده الكحولي• لعلها شعرت بأنه يتهيأ للكلام في قلق عذب • قالت برجاء :

ـ قلبي يحدثني انك ناديتني لأمر ، يشهد الله بأنني حلمت امس ••

فقاطعها :

ـ لا داعي للاحلام يا ام حسني ، اريد عروسا ••

فتهلل وجهها وهتفت :

ـ يا الف نهار ابيض ••

ـ عروس مناسبة ••

ـ ما اكثرهن !

ـ لي شروط يا ام حسني ، افهميني جيدا ••

ـ عندي البكاري والثيب مطلقات وأرامل ، الغنيات ومن هن على باب الكريم ••

فقال بصوت حاسم :

ـ أبعدي فكرك عن حارتنا ، عن جينا كله ••

فتساءلت بحيرة :
ـ ما هي افكارك يا ابني ؟
ـ اريد عروسا من اسرة كريمة ••
ـ عندك المعلم حسونة صاحب المطحن البلدي ••
فقاطعها بنفاد صبر :
ـ لا تفكري في حينا ، عليك بالأسر الكريمة ••
ـ تقصد •••؟
ـ الاعيان •• كبار الموظفين •• اصحاب السلطة ••
بهتت المرأة كأنما تسمع عن عالم فلكي جديد ••
ـ الظاهر انه لا حول لك في هذا المجال •
فقالت بيأس :
ـ تفكيرك غريب يا بني ••
ـ ليكن ••
ـ لا حول لي كما قلت ولكني اعرف ام زينب الخاطبة بالحلمية •
ـ عليك بها ، وعند التوفيق سأعاملك كما لو كنت صاحبة الفضل الاول ••
وهي تضحك :
ـ انت بخيل يا سي عثمان •
ـ يا ولية يا ظالمة ، هذا وعد ورحمة امي ••
ـ ربنا يوفق •
ـ ليس من الضروري ان تكون بكرا ، لتكن ارملة •• مطلقة •• عانسا •• لا يهمني الجمال ـ ولكن لتكن مقبولة ـ ولا يهمني السن ولا المال ••
هزت المرأة رأسها في حيرة فقال :
ـ عن الوظيفة والدرجة والشهادة فليرجعوا الى الوزارة أما ••

وسكت قليلا ثم استطرد :

ـ اما الاصل فيمكن القول بأن الاب كان تاجرا مثلا ، هـــل يتحرون عن ذلك بدقة ؟

ـ نعم •• رحم الله والديك ••

ـ على اي حال قد يشفع لي شخصي ، ولنجرب !

ومضت الايام مرهقة وهو ينتظر • وكلما رجع الى ام حسني اوصته بالصبر • تخيل اسباب التأخير وقلبه يغوص في الظلام ، وراح يتردد على مقام الحسين •

وحدث في تلك الايام ان تخلف عن العمل مدير الادارة حمزة السويفي •• وعلم بأنه لزم الفراش لارتفاع شديد في ضغط الدم • وزاد من الحرج العام ان الادارة كانت بصدد اعداد الميزانية الجديدة• وقد عاده في مرضه ، وجلس قرب فراشه طويلا ، وأبدى من الحزن والاشفاق ما اطلق لسان الرجل بالثناء عليه والدعاء له ان يكفيه الله شر الايام • وتذكر عثمان في جلسته انه لم يزر سعفان بسيوني ، وانه ترك أخباره تنقطع عنه كأنه رحل • وقال مخاطبا حمزة السويفي :

ـ ارتح تماما ، ولا تترك الفراش حتى تسترد عافيتك بالكامل ، ولا تقلق من ناحية العمل فاني والزملاء في خدمتك ••

فشكره الرجل وتمتم في قلق :

ـ مشروع الميزانية !

فقال له بيقين :

ـ سعيد باذن الله ، كلهم تلاميذك ويعرفون من العمل تحت رياستك ما ينبغي عمله ••

اما في الوزارة فقد دار الحديث طويلا حول المريض ومرضه ، قيل ان الضغط نذير خطير ولا علاج له ، وقيل انه ربما اضطر حمزة بك الى التقاعد او التنحي على الاقل عن مهامه الرئيسية • سمع تلك الاقوال

باهتمام فخفق قلبه بسرور خفي تلقاه بسخط وقلق • كالعادة ، ولكنه هيج أحلامه ومطامعه • واذا بالمدير العام يصدر قرارا بتشكيل لجنة خاصة لاعداد الميزانية جعله مقررها • وتم اختياره عن دلالة لا تخفى على احد • أجل لم يشك احد في كفاءته ولا في حكمة القرار من هذه الناحية ولكن ـ قيل ـ ألم يكن اللائق ان تسند رئاستها الى وكيل الادارة محافظة على الشكل ؟!• اما هو فكرس كل قواه لاعداد المشروع حتى يبرز للوجود كاملا بلا هفوة واحدة • وتجلت مقدرته في توزيع العمل وتنظيمه ومتابعة المعلومات المطلوبة من ادارات الوزارة على حين تعهد هو بالموازنة الختامية وتحرير البيان • واقتضى العمل الاتصال المباشر بحضرة صاحب السعادة والاجتماع به ساعة كل يوم وأحيانا ساعتين ، حتى حلت الالفة بينهما مكان الكلفة • وامتد الاجتماع يوما اربع ساعات فأمر له بقهوة ، وقدم له سيجارة ولكنه اعتذر شاكرا لكونه غير مدخن • مرت ايام اترعت قلبه بالسعادة والزهو والامل ، ورضي الرجل عن عمله فشعر برضى الله واقبال الدنيا • وأعد للمشروع مقدمة مثالية حازت اعجاب المدير بصفة خاصة فتربع على قمة النصر المبين •

ورجع حمزة السويفي الى مكتبه مستردا صحته في اليوم الاخير لعمل اللجنة ، وأعلن عثمان افراحه فعانقه داعيا له بطول العمل • قال له:

ـ كنا كالضائعين فالحمد لله على سلامتك •

وتساءل الرجل :

ـ والمشروع ؟

ـ أعد ، وكتبت المقدمة ، هما معروضان الان على صاحب السعادة، وسوف تطلع عليهما غدا او بعد غد ، ولكن كيف حال الصحة ؟

ـ الحمد لله ، أجروا لي حجامة ، ووصفوا لي رجيما دقيقا ، والامر لله من قبل ومن بعد •

ـ ونعم بالله .. ، ما هي الا سحابة صيف ..

ألف في خدمته الطويلة انقسام الشخصية والعذابات الاخلاقية . كما ألف الصدمات المتوقعة وغير المتوقعة . كهذه الصدمة مثلا . وجثم الفتور في أعماق قلبه حتى اليأس . ولذلك فعندما خلت درجة رابعة في الادارة القانونية دفعه التوتر الى الكلام . اول مرة تكلم فيها بلسانه بعد ان اعتاد الكلام بأفعاله وخدماته . وبفضل الجو الذي خلقه العمل بينه وبين صاحب السعادة قال له :

ـ لو تعطف حضرة صاحب السعادة بالموافقة فقد يرى ان أستغل ثقافتي القانونية في الادارة القانونية ..

ولكن الرجل قال بلهجة حاسمة :

ـ كلا ، الادارة القانونية وقف على اصحاب امتيازات يحسن تجنب التعرض لها ..

ـ آه .. كالعروس التي طال انتظاره لها . وامتعض ولكنه قال بخشوع :

ـ امرك يا صاحب السعادة !

ومضى نحو الباب ولكن صوت الرجل ادركه قائلا :

ـ اقترحت رفع درجة رئيس المحفوظات الى الرابعة في الميزانية الجديدة .

رجع في خطوة واسعة واحدة وانحنى حتى كاد رأسه يمس طرف المكتب .

- ١٨ -

وثبة موفقة لا شك في ذلك . واذا جرى الحظ بذلك المعدل فربما

بلغ المراد في اثني عشر عاما او خمسة عشر ، ويتبقى له عدد لا بأس به من السنين يمارس فيه الادارة الكبرى كصاحب سعادة . اما مهمة ام زينب فقد باءت بفشل اكيد . لم يعد من مجال الشك في ذلك .

ــ رئيس المحفوظات رفض بلا عناء ، مدير الادارة ربما قبل ، اما صاحب السعادة فلا يمكن رفضه ولو بلغ أرذل العمر !

لا حصر للاسباب التي تدعوه للزواج . منه يستمد العون . ويبدد وحشة اللقب وعذابات الوحدة . ويرضي ورعه الديني الذي يـــرى عزوبته اثما . قدرية تلعب دورا ملطفا في حياته المتوتـــرة ولكنها لا تهييء رحمة او حنانا او مودة انسانية ، فضلا عن مضاعفتها لمشاعـــر الاثم . العزاء الباقي هو العمل ، والثقافة ، والادخار ، وكلما ضـــاق بتقشفه قال لنفسه :

ــ هكذا عاش الخلفاء الراشدون !

وذات يوم وهو يعمل في المحفوظات بوغت بسعفان بسيوني يقف امامه مهدما مهزولا كأنه شبح يودع الحياة . نهض للترحيب به خجلان من هول ما اهمله . وأجلسه وهو يقول بحرارة مفتعلة :

ــ اي فرصة سعيدة !

فاستجمع العجوز أنفاسه بجهد جهيد ثم تمتم :

ــ كم اوحشتني يا رجل !

فهتف بأسف وندم :

ــ اللعنة على العمل ، اللعنة على البيت ومن فيه ، كم انني آسف يا صديقي العزيز ..

قال بصوت شاك :

ــ انا مريض يا عثمان ..

ــ لا بأس عليك ، بخير ان شاء الله ، هل آمر لك بقهوة ؟

ــ لا شيء البتة ، كل شيء ممنوع ..

ـ ربنا يرد لك الصحة والعافية ..

غاص في الحرج والضيق ولم يدر كيف يمكن ان تنتهي هذه المقابلة التعيسة . وصمت سعفان قليلا ثم قال بانكسار وذل :

ـ اني في مسيس الحاجة الى ثلاثة جنيهات ..

غص بالكلام ثم استدرك :

ـ للعلاج كما ترى ..

ارتعد عثمان . رأى الخطر يوشك ان يدهمه . بلا رحمة . هتف بطريقة مؤثرة كالمطارد :

ـ يا للفظاعة ، ما كنت أتصور ، ما كنت أتصور ان ارد لك طلبا ، فضلا عن هذا الطلب بالذات ، أيسر علي ان اسرق من ان ارفض طلبك..

فازدرد الرجل ريقه وقال بيأس :

ـ ولا جنيه واحد ؟!

ـ ألا تصدقني يا أعز الناس ؟! والله لولا الحياء ، لولا الحياء ..

يئس الرجل تماما . غرق في افكار مجهولة . قام بصعوبة وهو يقول :

ـ اني مصدقك ، كان الله في عونك ، ربنا يلطف بنا كلنا ..

دمعت عينا عثمان وهو يصافحه . دمعة حقيقية . لا تمثيل فيها . هي تكشيف لبعض أبخرة الصراع المعذب الناشب في اعماقه . كاد يلحق به . لكنه لم يتحرك . تركه يذهب . رجع الى المكتب وهو يناجي نفسه:

ـ يا للعذاب ..

وقال :

ـ كان يجب ان نقد من صخر او حديد لنستطيع تحمل الحياة ..

وقال ايضا :

ـ الطريق طويلة جدا ، عزائي انني أقدس الحياة ـ نعمة الله ـ ولا أستهين بها !

في نفس الاسبوع أبلغ بنعي سعفان بسيوني !• فصدم صدمة عنيفة رغم ان الامر كان متوقعا •

ومن شدة ألمه صاح بنفسه :

ـ كف عن التألم ، الديك من العذاب ما يكفيك ••

وتساءل :

ـ اني محسود فهل انا سعيد ؟

وتساءل ايضا :

ـ ما السعادة ؟

ثم قال :

ـ سعادتنا الحقيقية ان الله موجود •

ثم باصرار :

ـ اما ان نحيا واما ان نموت !•

- ١٩ -

الوقت كالسيف ان لم تقتله قتلك • بات خبيرا بقتل الوقت ولكن هل نجا حقا من سيفه ؟!• امس خلا اليه موظف جديد شاب ليسأله النصح في مسألة خاصة فمهد لسؤاله بقوله :

ـ معذرة يا سيدي الرئيس ، انما اسألك كوالد او اخ اكبر !

وقع قوله من مسمعه موقعا غريبا حتى خيل اليه انه يسخر منه !• كوالد !• حقا كان من الممكن ان يكون له ولد في سنه • لم لا ؟• ومع ذلك فانه لم يهمل قط في قتل الوقت•

ويوما قالت له ام حسني :

ـ اما هذه المرة فهي ناظرة مدرسة !

اهتز بسرور لا خفاء فيه • ولكن الناظرة زوجة صالحة ربما على حين انه يريد «مصعدا» فما العمل ؟

ولم يستطع ان يقاوم حب الاستطلاع فسأل العجوز :

ـ طاعنة في السن ؟

ـ عز الانوثة •• خمس وثلاثون سنة على اكثر تقدير ••

ـ ارملة ام مطلقة ؟

ـ عذراء كما خلقها الله ، لم يكن يسمح لهن بالزواج كما تعلم ••

ولم يجد بأسا في ان يراها • رآها في السيدة • مقبولة المنظر والمبنى • أثارته سنية من قبل • هكذا رآها وعلم ايضا بأنها رأته •

وقالت له ام حسني في مقابلة تالية :

ـ لن تكلفك مليما واحدا ••

فأدرك انه حاز القبول • وها هي تقترح ان تجهز نفسها وتعد بيتها ولن يطالب الا بالهين • قالت العجوز :

ـ الدبلة والشبكة وبعض النثريات فهل اقول مبارك ؟

ـ صبرك ••

ـ لها شرط واحد ان يكون مؤخر الصداق مائة وخمسين جنيها••

كل شيء جميل ويوافق تماما حرصه • وهو مناسب جدا اذا كان يروم اكمال نصف دينه فقط ولكن ماذا عن دنياه ؟!• رغم ذلك غرق في دوامة التفكير ربما بسبب شعوره بتقدم العمر • بسبب الايحاءات المجهولة التي انثالث عليه من عالم الغيب • بسبب ما لاح له ساخرا وقاسيا وغادرا • بسبب الورود التي لم يتشممها والانغام التي تتردد بعيدا عن تناول اذنيه • بسبب التقشف والحرمان • ومع ذلك قال لنفسه :

ـ اي تفكير وأي تردد ؟•• هراء في هراء •• لن اجن على آخر

الزمن !

وتمنى لو تنشأ بينهما علاقة ما . غير مقدسة !!. ولكنه يلقي رفضا أشد مما لقي لدى سنية . والقبول ليس سعيدا كما يتبادر الى الذهن. فهو يقتضيه اعداد شقة وتأثيثها . وانقبض قلبه خوفا . وقال لأم حسني ببساطة آخر الامر :

ـ كلا .

فهتفت العجوز :

ـ انت تعني شيئا آخر ..

ـ قلت كلا ..

ـ انت لغز يا بني .

فضحك بلا سرور .

ـ ماذا تريد ؟.. ألا تحب جنس النساء !.

فضحك مرة اخرى ..

ـ غفر الله لك ..

فقالت العجوز :

ـ انا حزينة يا ابني ..

فقال لنفسه ، بالحزن يتقدس الانسان ويعد نفسه للفرح الالهي ..

- ٢٠ -

وجاءت أنسية رمضان وهو فريسة لمشاعر سوداوية طاحنة لا عهد له بها بمثل تلك القوة من قبل . قال انه تائه في صحراء قاحلة تتلظى بالنيران ، لم يفز بشيء ذي قيمة ، الامل طويل والعمر قصير ، والماضي

حقير ، رغم العواطف الشخصية الحسيمة فهو حقير . رمزه الحقيقي قبر الصدقة والسجن . والشهيد في اسرته استشهد في جانب الظلم والبغي. وهو بلا صديق . انقطعت الصلة تماما بينه وبين آقران صباه . له زملاء يحترمونه ويحسدونه ولكن لا صديق له ، الوحيـــد الذي يجالسه احيانا ، في صفاء خادم في جامع الحسين . والهبة الرومانسية في حياته الجافة حجرة عارية وبغي نصف زنجية •

ــ ما معنى هذه الحياة ؟

وهو كرس نفسه حقا لطريق الله المجيد ولكنه يغوص في الآثام . ويتلوث ساعة بعد اخرى . ويبدو انه لا يقاوم الموت بما فيه الكفاية من قوة •

ــ كأنها لعبة خاسرة !

في الأتون المتقد . وهو يتلظى في جحيمه . وفدت على المحفوظات نسمة لطيفة ذات عبير جديد ، جديد على المحفوظات والادارة العامة بكل معنى الكلمة • كانت اول فتاة تلحق بالادارة وبالمحفوظـات بالذات • سمراء رشيقة متناسقة القسمات بسيطة الملبس • أثار منظرها ارتباكه ودهشته وعطفه وهي تقف امام مكتبه مقدمة نفسها • دعاها للجلوس وهو يلسح رؤوس الموظفين تبرز من بين صفوف دواليب شتى • انهم يتعجبون ولا يصدقون •

ــ اهلا بك ••

ــ متشكرة . اسمي أنسية رمضان •

ــ تشرفنا ، يبدو انك صغيرة جدا ؟

ــ كلا ، ثمانية عشر عاما !

ــ عظيم •• عظيم •• وما شهادتك ؟

ــ بكالوريا علمي ••

ــ جميل ، لم يا ترى لم تكملي تعليمك ؟

وندم على ما فرط من سؤاله • عاودته ذكريات اول يوم في خدمته في حجرة حضرة صاحب السعادة المدير العام ، اما الفتاة فأجابت بحياء :

ــ ظروف اضطرتني الى الاكتفاء بذلك •

ولعن الظروف ولكنه تعزى باشتراكهما التاريخي في هم مخيف واحد • قال ملاطفا :

ــ انك تذكرينني بنفسي ، ولكن اعلمي بأنني اكملت تعليمي وأنا موظف ، وان الابواب المغلقة خليقة بأن نفتح امام الهمة العالية ••

فغامت عيناها برنوة حزن وقالت :

ــ ولكننا نعايش مجتمعا فظا سيئا ••

وجد الافكار «الثورية» التي يجهلها ويتجاهلها تهدد بمطاردته كالعادة فقال باصرار :

ــ الاعتماد على النفس خير من مهاجمة المجتمع • الله يأمرنا كأفراد ويحاسبنا كأفراد ، وشق طريقك وسط الصخور خير من تسول صدقة من المجتمع ، الظاهر انك تهتمين بالسياسة وبما يسمونه بالافكار الاجتماعية ؟

ــ اني أومن بذلك ••

ــ هذا يعني انك لا تؤمنين بنفسك . انا لا اعرف الا عزيمتي وحكمة الله المجهولة !

فابتسمت ولم تعلق بحرف فابتسم ايضا وقال :

ــ سأعهد اليك بالوارد فهو انسب عمل للموظف الجديد ••

ــ شكرا يا سيدي ••

ــ وسأنتظر منك دائما ما يجعلك اهلا للثقة ••

ــ أرجو ان تجدني عند حسن ظنك ••

ــ واذا صادفتك مضايقات من الزملاء فلا ترددي عن اخباري •

ــ أرجو ألا أحتاج لذلك •

وعهد بها الى موظف ليمرنها على العمل قائلا باقتضاب :

ــ سركي الوارد ..

شعر بأن المحفوظات تثب وثبة موفقة نحو الحياة المضيئة ، وأنها لن تخلو بعد اليوم مما يحرك القلب والعواطف . وتبددت بعض الشيء سحب الذكريات السوداوية . وتذكر بدلا من ذلك سيدة وسنية وأصيلة ناظرة المدرسة وقدرية فقال لنفسه ان عالم النساء لا نهاية لتنوعه وعذوبته وعذاباته . وتساءل في حيرة :

ــ أيهما الغاية وأيهما الوسيلة المرأة ام الدرجة ؟!

وقال ايضا :

ــ رجال كثيرون عاشوا بلا درجات ولكن من منهم عاش بلا امرأة؟

في مثل سنه يفكر الانسان مرتين . قد يضيق بصحبة الكتب ويتأفف من العمل ، ويشق عليه الحرمان والتقشف ويطارده الماضي بلا رحمة . في مثل سنه تشتد الحساسية بالعزلة والوحشة ، وبالانتظار المؤرق لمجد يتعسر . وأمس قال له حمزة السويفي ضاحكا :

ــ ها هي شعرة بيضاء في رأسك يا عاهل اللوائح المالية !

فزع كأنما ضبط متلبسا بجريمة ، وقال :

ــ لعل النظر خدعك يا سيدي المدير .

ــ لتكن المرآة حكما بيني وبينك فانظر جيدا في البيت ..

فتمتم منهزما :

ــ جاءت قبل الأوان .

فقال مدير الادارة ضاحكا :

ــ او بعد الاوان ، لقد عرفت الشيب وأنا أصغر منك بعشرة أعوام ..

وضحك المدير طويلا ثم قال :

ــ امس دار حديث عنك مع بعض الزملاء ، تساءلنا بحيرة كيف

تعيش ؟ . قلنا انك لا تظهر في طريق او مقهى او حفل فأين تقضي وقتك ؟ ، وقالوا انه غير متزوج فلماذا يعيش ؟.. ، وقالوا انه لا يهتم لشيء مما يهتم به الناس فماذا يهمه حقا في الدنيا ؟!

فابتسم في فتور وقال :

ـ يؤسفني انني شغلت بالكم ..

ـ انك رجل قادر وفاضل ولكنك غامض ، ماذا يهمك في هذه الدنيا ؟

فقال وقلبه يلهث حيال حصار التحقيق :

ـ لا غموض يا حمزة بك ، اني رجل هوايته الواجب وقرة عينه في عبادة الله ..

ـ ونعم بالله ، ارجو ألا اكون قد ضايقتك ، المهم ان يرضى الانسان عن نفسه ..

ولكن اين الرضى اين ؟!

ها هي طليعة الشيب تغزو رأسه . والحياة المجيدة تنقضي كالحياة التافهة ، وكم يتبقى له من الزمن يا ترى ؟!

- ٢١ -

وقال له حمزة السويفي يوما في مناقشة على هامش العمل اليومي:

ـ السعادة هي غاية الانسان في هذه الحياة ..

فقال عثمان بازدراء باطني :

ـ لو كان الامر كذلك لما سمح سبحانه بخروج ابينا من الجنة ..

ـ اذن فما الهدف من الحياة في نظرك ؟

فأجاب باعتزاز :

ـ الطريق المقدس ..

ـ وما هو الطريق المقدس ؟

ـ هو طريق المجد . او تحقيق الالوهية على الارض !

فتساءل حمزة بدهشة :

ـ أتطمح حقا الى سيادة الدنيا ؟

ـ ليس ذلك بالدقة ، ولكن في كل موضع يوجد مركز الهي ..

ورمقه الرجل بنظرة غريبة فقال لنفسه ـ نادما ـ انه يظن بي الجنون ..

وتطايرت شائعة بأن حضرة صاحب السعادة بهجت نور سينقل الى وزارة اخرى فخفق قلبه خفقة كاد يخلع لها . لقد فعل المستحيل حتى حاز ثقته فمتى يحوز ثقة القادم المجهول ؟. ولكن الشائعة لم تتحقق . ويوما سلمه مجموعة ضخمة من الاوراق قائلا :

ـ هذه اصول ترجمة كتاب عن الخديو اسماعيل ، ترجمتها في نصف عام !

نظر عثمان الى الاوراق باهتمام فقال صاحب السعادة :

ـ يهمني ان تراجع الاسلوب ، أسلوبك فذ حقا ..

تلقى التكليف بسعادة شاملة ، وأكب على العمل بهمة وقوة وعناية فائقة . وفي شهر واحد اعاده الى صاحب السعادة في صورة بيانية كاملة . بذلك قدم الخدمة التي تلهف طويلا على تقديمها ، وأصبح رصيده عند صاحب السعادة دائنا ، وحظى ـ عند كل لقاء ـ بابتسامة لا يحظى بها المقربون .

رغم ذلك كله ألهبه الجزع بسياطه ؛ ورأى الزمن يجري حتى توارى في الافق تاركا اياه وحيدا في الخلاء مع طموحه المقدس . ومن نفاد الصبر مضى الى قارئة فنجان في التوفيقية ، نصف مصرية ونصف

افرنجية ، تناولت فنجانه وراحت تقرأه وهو يتابعها باهتمام لا يخلو من خجل ويقول لنفسه انه ما كان يجوز له ان يؤمـــن بهذه الخرافات • قالت له :

ــ صحتك ليست على ما يرام ••

الصحة جيدة بلا ريب • ولكن صحته النفسية عليلة • لعلها صدقت على اي حال ••

قالت المرأة :

ــ سيأتيك مال وفير ولكن من خلال متاعب كثيرة •

انه لا يطلب المال وان يكن حريصا على كل مليم يجيئه • لعلهـــا تقصد علاوات الترقية المقدرة في عالم الغيب •

ــ وعدو لك سيذهب في طريق فلا يعود منه ••

الاعداء كثيرون • يختفون وراء الابتسامات الخلابة والكلمـــات المعسولة • في طريقه يوجد وكيل ادارة ثالثة ووكيل آخر ثانية ومدير ادارة أولي • جميعهم اصدقاء ــ اعداء كما تقضي به ارادة الحيـــاة الطاهرة القاسية •

ــ وفي حياتك زيجتان ••

انه لم يوفق الى الزواج من واحدة ، ولكن هذا هو جزاء من تدفعه الوساوس الى الوقوع في أحضان الخرافات • وتذكر في طريق عودته أنسية رمضان • في طريق الصحة والاناقة تتقدم فنعمة الوظيفة سرعان ما تتجلى على الفقراء • هو رئيسها الحنون • تربطهما علاقة انسانيـــة رقيقة مهذبة يتعذر ــ حتى الان ــ تسميتها • على اي حال لم يعـــد يتصور المحفوظات بغير وجودها العطر •

ولما رجع الى حجرته لحقت به ام حسني وقالت له باهتمام أثـــار ابتسامته :

ــ ست أصيلة هانم عندي وهي ••

ــ الناظرة ؟

ــ نعم ، وهي تريد ان تستعين بك في بعض شؤونها •

أدرك في الحال ان المرأة جاءت لتطوقه بضفيرتها • وانساق الى المغامرة بغريزته المتطلعة • صافح أصيلة لاول مرة • كانت ترتدي فستانا ازرق يكشف عن نحرها وساعديها ، ويبرز مفاتنها • ها هي تعرض عليه نفسها مهما ادعت من اسباب حقيقية او وهمية • وأثارته كما أثارته سنية وقدرية • انهن نمط واحد • شهي مثير لا خير في الزواج منه • وقالت ام حسني :

ــ سأذهب لأعد لكما القهوة ••

لها تكتيك واحد العجوز الساعية وراء الحلال • وها هما يجلسان على كنبة واحدة لا يفصلهما الا وسادة • أمال رأسه ليسوي شاربه مرسلا طرفه الى ساقها المدمجة المغروسة في حذاء ذي كعب واطىء اشبه بكعوب احذية الرجال •

ــ تشرفنا يا هانم •

ــ ولي عظيم الشرف •

تشابكت يداها فوق حجرها وقالت بثبات دل على قدرتها على مواجهة المواقف :

ــ لي استفسار من فضلك •

ــ أفندم ؟

ــ أملك قطعة ارض نزعت ملكيتها ، اظنك تفهم هذه الشؤون ؟

ــ طبعا •

ــ الطريق المزمع انشاؤه يغطي اغلبها ولكنه يترك اجزاء لا يمكن الانتفاع بها ؟

ــ أعتقد ان التعويض عن ذلك يراعى عند تقدير الثمن •

ــ ولكن الاجراءات معقدة كما تعلم ؟

ـ لك ان تعتمدي علي ..

بقدر ما شعر بقوة شخصيتها بقدر ما يئس من اغرائها . انهـا مستعدة للزواج وما جاءت في الواقع الا من اجل ذلك ، اما ان ترضى بعلاقة غير مشروعة معه فيبدو امرا مستحيـلا . ورجعت ام حسني ، ومضيا يحتسيان القهوة في صمت تام . لعلها أصلح زوجة من اكثر من ناحية ولكنها ليست من يريد . وهبطت من السماء صورة انسية رمضان فجلست بينهما ومحت المرأة محوا . منذ عهد السبيل الاثري لم يتحرك قلبه كما تحرك لهذه الفتاة الصغيرة . لانت أعصابه المتوترة وصفت نفسه وتلقى من الخيال نسمة منعشة اذكت اسمى عواطفه . ولما ذهبت المرأة وجد ام حسني تنظر اليه باهتمام تريد ان تطمئن على الوظيفـة الحيوية التي ترعاها بعملها وايمانها . باتت العجـوز تعبد الزواج والانجاب والافراح وتسبح لله في معجزة الحب التي أبدعها . ولما طال سكونه قالت برجاء :

ـ لعلك غيرت رأيك ؟

ـ لماذا ؟

ـ ألم تر انها مثل فلقة القمر ؟

ولبث جامدا رافضا ممتنعا عن تناول يدها الحنون فقالت باستياء :

ـ قالوا في الامثال ..

غادر الحجرة قبل ان يسمع المثل . يا للخسارة . اذا لم يسعفـه زواج قيم فقد يتبدد سعيه ويهدر امله في وسط الطريق . وحياتـه اصبحت مثار تساؤلات وانتقادات لا حصر لها فأناس يتساءلون لم لا يتزوج وينجب ويألف ويؤلف ؟ ، وأناس يتساءلون كيف ينحصر فـي ذاته متجاهلا الاحداث التي تقع من حوله فينفعل بها المواطنون حتـى الموت ؟. وما هي الهموم التي تشغلهم وتستحوذ على افئدتهم ؟ انهـا تتطاير مع احاديثهم الصاخبة وتعطل اعمالهم . دواما يتحدثون عـن

الاولاد والامراض والطعام ونظام الحكم وصراع الطبقات والاحزاب والحكم والامثال والنكات • انهم لا يحيون حياة حقيقية ويفرون من واجبهم المقدس • يجفلون من الاشتراك في السباق الرهيب مع الزمن والمجد والموت وتحقيق كلمة الله المضنون بها على غير اهلها •

- ٢٢ -

جاءت انسية رمضان لعرض ميزان البريد الشهري • كان صباح يوم من ايام الخريف والجو الرطيب يتسلل الى حنايا النفس بالأسى العذب • نقل بصره بين الجدول الذي يراجعه وبين اصابع يديها المبسوطة على حافة المكتب • خيل اليه ان شيئا ما يتحرك في احدى يديها • يتحرك ويقترب في زحف رشيق كأنه كلمة سر • يقينا انها علبة صغيرة دستها بخفة تحت السومان بعد توكدها من رؤيته لها •

ـ ما هذا ؟

تساءل بصوت منخفض يتناسب غريزيا مع الحذر الذي اكتنف الحركة من أولها • رفع السومان قليلا فرأى علبة معدنية مفضضة بحجم نصف الكف • تساءل مرة اخرى :

ـ ما هذا ؟

همست بوجه كالأرجوان :

ـ هدية بسيطة ••

ـ هدية ؟!•• ولكن ما المناسبة ••؟

ـ مناسبة سعيدة ••

بذهول وتشتت من شدة الانفعال :

ـ حقا ؟

ـ ألا تتذكر ؟

قال رغم انه تذكر :

ـ ماذا ؟

ـ اليوم عيد ميلادك !

تلقى موجة مترعة بنشوة الفرح • اليوم عيد ميلاده او تاريخ ميلاده على الاصح • ولكنه يوم يمر كالايام ، ربما تذكره قبل حلوله بأيام او بعد انقضائه بأيام او حتى في ذات اليوم دون ان يكون لذلك اي اثـــر اللهم الا مضاعفة الجزع على المستقبل • لم يحتفل به ابدا • لم يعرف ذلك التقليد ، ولم تعرفه حارته العتيدة • ها هي أنسية تبشر بتقاليـــد جديدة ، وجديدة ايضا مناورتها الطاهرة في التوادد وقدرتها البارعة في فتح ابواب الرحمة •

ـ الحق اني لا اعني بتذكره ••

ـ شيء غريب ••

ـ ولم كلفت خاطرك بذلك ؟

ـ تحية متواضعة جدا •

ـ اني عاجز عن شكرك •

ـ لا داعي لذلك مطلقا •

ـ كم انك رقيقة مهذبة ولكن كيف عرفت تاريخ ميلادي ؟

وضحك ثم قال مستدركا :

ـ آه •• نسيت •• اطلعت على ملف خدمتي الاداري وفضحت سني ؟ !

ـ انه سن العقل والنضج ••

مد لها يده فتصافحا • ضغط على يدها الرقيقة كغشاء من حرير • انثالت عليه الافكار العذبة طيلة الوقت • سيرد الهدية بأحسن منها في

عيد ميلادها الذي سيعرفه من ملفها الاداري ايضا • ورغم سعادته المشرقة تسنى لو انها اختارت وسيلة للتحية لا علاقة لها بالنقود . فانفاق النقود يؤلمه ويخل بميزان حياته • ولكنه لم يهتم لذلك طويلا • انه ينزلق في هاوية ، يطير نحو المجهول ، مفعم القلب بالمسرة والحنين • وقد ضغط على يدها فتلقت ذلك بابتسامة واعية راضية ومشجعة ايضا • وماذا بعد ذلك ؟• هل يتفق وطريقه الاوحد ؟• انه يواجه ما هو اعظم من موقف دقيق عابر مفعم بعبير ساحر ، انه يواجه المجهول والقدر • انه يطرق الباب الذي يوقفون وراءه الزمن او يرجعونه خطوة الى الوراء • وثمة نداء تردد ان ارجع والا هلكت ولكن لم تستجب له اذن ولا قلب •

وقفت في اليوم التالي قبالته تراسله بنظرات تفيض بالطاعة والعذوبة • حرقت الحرارة رأسه وعنقه • انجذبت اصابعه الى ملامسة اصابعها فوق الدوسيه المبسوط بينهما • افضى اليها بتوجيهات مدغمة لا معنى لها • وفتشت عيناه المكان بحذر • مال رأسه حتى لثم فاها • تراجع الى مقعده وهو ينتفض ، يرتعش ، يحترق ، ثملا بخمر الحياة والخوف من المجهول •

- ٢٣ -

وكان لقاء قبيل عصر الجمعة • تم نتيجة لتيار من الاستسلام لا يقاوم وبأمل في النجاة آخر الامر • سماه تدهورا ولكنه كان محفوفا بالسعادة • ولم تكن له خبرة بأماكن اللقاءات السعيدة فاقترحت هي حديقة الازبكية ولكنه اعترض قائلا انها مكان مكشوف تحدق به

الاعين من جميع الجهات • اما حديقة الحيوان فهي بعيدة بما فيه الكفاية : مهجورة ، خارج العمران ، ممتنعة عن الرقابة ، يخوض الترام اليها حقولا وخلاء • ومشيا جنبا لجنب يستمتعان بحياة «حقيقية» في الساعات السابقة لميعاد الاغلاق • لم يكن رأى الحديقة منذ زارها في رحلة مدرسية • ولم تكن لديه فكرة عن اصول اللقاء ، ما يقال وما لا يقال • ما يفعل وما لا يفعل • سارا صامتين سعيدين ولكن ثمة احساسا غير مريح ناوشه ، بأن اللقاء حدث شاذ وخطأ ، بأنه ما كان ينبغي ان يستسلم • ودفعا لارتباكه ولمشاعره المحبطة ابدى اعجابه بالاشجار والقناطر والجبلاية والجداول والبحيرات وبأنواع شتى من الحيوان • ولبث مقتنعا بأنه لم ينطق بكلمة مفيدة بعد ، وبأنه يحاول الهرب بعد فوات الاوان • وسارت الى جانبه تسيل عيناها بنظرة حالمة وظافرة ، مرفوعة الرأس ، مسددة النهدين ، يوحي منظرها بأنها مندفعة في مجرى من المطالب لا أفق له ، وأنها تلتهم في تنفسها اجمل اسرار الحياة • وتلاقت عيناهما فقرأ في ألقهما البراءة الناصعة والمكر العذب وسيالا من الرغبات المجهولة • قالت محتجة :

ـ حتى وأنا موظفة لا استطيع ان اخرج الى مثل هذا اللقاء بسهولة ••

فندت عنه نبرة أبوة مضحكة وهو يقول :

ـ لا تغضبي من اجل ذلك يا عزيزتي ••

ـ ولكنه غير طبيعي ومهين ••

ـ ترجمة غير دقيقة لعواطف الامهات والآباء ••

ـ لا أعتقد انك تؤمن بذلك ••

ـ حقا ؟!

فضحكت في ثقة كاملة ثم قالت مستدركة :

ـ لو عرفت ماما انني سألقاك لما مانعت فيما أعتقد •

فقال بقلق :

ــ ولكنها لم تعرف ؟

فعادها الضحك . وسكتت قليلا حتى جف ريقه تماما ، ثم قالت :

ــ اللقاء سر كما اتفقنا .

ــ طبعا يا عزيزتي .

ــ الحق اني غير مقتنعة ..

واضح جدا انها تود ان تعسل في النور . وما يعنيه ذلك واضح ايضا .. ترى هل بات تحت رحمتها ؟. هل ترغمه الظروف على قبول ما ليس في مخططه ؟. هل تحاصره عناصر هدم تبدد بصفة نهائية حلمه الوحيد المقدس الممتنع ؟.. وتحدى من خلال خواطره المخيفة المجهول فأنذره بالقتل ، حتى خجل من أفكاره وهو يلحظ الغزال الاسمر الذي يشب متأبطا ذراعه في فرحة تباركها السحائب السابحة في سماء الحديقة. وسرعان ما صفت نفسه فدفن وساوسه ، وهادن آماله الملحة ، ليذوب في المفاتن المشرقة ، ويتذوق السعير المشتعل في جوفه . ووجد ان كوعه يلامس جسدها اللدن ، ويتلقى من مجاهيله الفتية اشعاعات من السحر ، تفرس المكان حوله بنظرة متلصصة آثمة ، ثم لثم خدها ، وعنقها ، ثم التقت شفتاهما . قال بصوت لم يعرفه :

ــ انت فاتنة يا أنسية .

فابتسمت في حياء وسعادة فقال بحرارة :

ــ أود ان ..

وسكت وهو يتنفس بصوت مسموع فتساءلت :

ــ هه ؟

ــ كأنني اعرفك منذ الأزل ..

فابتسمت في رضى وان طالبت عيناها بالمزيد . قال :

ــ ما اجمل المكان . كل شيء ينطق بجمال صارخ ..

ـ انت تحب الطبيعة !

وقع القول من أذنه موقعا غريبا وساخرا بقدر بعده عن واقعه. قال:

ـ انت التي جعلت كل شيء جميلا ..

ـ لا تبالغ ، أتحب ان أصارحك بشيء ؟

ـ جدا !

ـ تبدو عادة غير مهتم بشيء .

ـ حقا ؟.. وهل صدقت ما يبدو ؟

ـ لا أدري ، ولكنني شعرت بأنك لغز بقدر ما انت طيب ..

ـ لا معنى لذلك كله ، الحقيقة الوحيدة المسلم بها هي انك فاتنة..

ـ وبعد ؟

ـ وما بيننا يجب ان يبقى الى الابد مهما يكن المصير !

ـ المصير ؟

ـ ألم يخبرك الملف الاداري بشيء غير طيب ؟

ـ ابدا .

ـ انت اجمل شيء في حياتي ..

فقالت بهدوء واستسلام :

ـ وأنت كذلك ..

فلثم خدها من جديد وهو يضغط على راحتها بقوة وهمس :

ـ ما اشد حيرتي بين ما اريد وما استطيع ..

ـ هل تريد شيئا ولا تستطيعه ؟

ـ الدنيا مليئة بالرغائب الممتنعة ..

ـ حدثني عما يخصني انا ..

لها حق . ما زال فوه يندي بقبلتها . ما زال كوعه يلامس فتنتها الطرية ، وهما يختالان امام الفيل الذي يرفع خرطومه تحية لهما .

ـ ليكن ما بيننا سرا .

ـ لماذا ؟

ـ كيلا يسيء احد بنا الظن .

ـ ولماذا يسيء بنا الظن ؟

ـ هكذا الناس .

ـ لا سوء بيننا .

ـ ولكن هكذا الناس يا عزيزتي .

ضحكت بمرح وتساءلت :

ـ أدعوتني يا استاذي لتعظني ؟

ـ دعوتك لنتعارف ولأتوكد من ان قلبي على حق .

ـ وماذا كانت النتيجة ؟

ـ آمنت بأن القلب خير دليل !

تساءل طيلة الطريق لم لم يعترف لها بحبه صراحة ؟. لم لم يطلب يدها ؟. وعلى فرض انها ستقلب حياته رأسا على عقب وستقيم له في محراب الحياة قبلة جديدة أليست هي أقدر على اسعاده من النجم القطبي ؟!.

ـ ٢٤ ـ

جاءت أصيلة حجازي «الناظرة» بحجة السؤال عن نتيجة مسعاه . بذلك اخبرت ام حسني وهي تدعوه الى شقتها . كان يعاني من همومه الثابتة بالاضافة الى الحب الذي غزاه ليبلغ بحدة الصراع في نفسه درجة الجنون . لذلك رحب بزيارة أصيلة حجازي ليهرب من نفسه ولو ارتكب في سبيل ذلك حماقة مأمونة العواقب . كان بحاجة

الى الهرب ولم تكن قدرية في متناول يده كل يوم • صافح الناظرة • جلس وهو يقول :

ــ مسألتك تسير في طريق الحل ••

سرعان ما غنت مفاتن جسدها لحنها الجهنمي على أوتار فستانها المنقوش بالورد • وتساءلت وهي ترنو اليه بمودة :

ــ هل أنتظر طويلا ؟

رأت ام حسني ان تذهب لاعداد القهوة فركبه تصميم جنوني على حسم الموضوع ، وتوجيه ضربة غير متوقعة مستهينا بالعواقب • قال :

ــ لن تنتظري طويلا ••

ــ بفضلك •

ــ الحق ان كل شيء يتوقف على قوة اعصابك ••

ــ الظاهر انه ينبغي ان أنتظر بعض الوقت ؟

فقال بنبرة جديدة تماما كأنما يفتتح بها موضوعا جديدا لا صلة له بما قبله :

ــ اسمحي لي ان اصارحك باعجابي !

فغضت بصرها موردة الوجنتين فقال :

ــ انه اعجاب صادق ، اعجاب رجل بامرأة ، انت تفهمين ذلك ••

فلم تنبس ولكنها تبدت سعيدة وعلى وشك دخول الجنة ••

ــ ولكن يجب الحذر ، يلزم المصارحة بأمر آخر لعله لا يروقك ••

لمحته مستطلعة فقال :

ــ فكرة الزواج مستحيلة !

راقبها وهي تتحول الى رماد ثم قال بجرأة وبلا رحمة :

ــ عندي الف سبب وسبب والدنيا اسرار ••

تساءلت بصوت مريض :

ــ ماذا دعاك لمصارحتي بذلك ؟

فقال بلهجة مؤدبة وهو يمعن في قسوته :

ــ لسنا مراهقين فلنتكلم كراشدين ولنبحث عن سعادتنا باخلاص وشجاعة ..

ــ لا انهم شيئا .

ــ حسن . اني معجب بك ولكني أعزب أبدي ..

ــ لماذا تقول لي ذلك ؟

ــ ربما وجدت عندك حلا للحال المستعصية .

فقالت باستياء شديد :

ــ انك تجرح كرامتي بأسلوب غير انساني ..

ــ اعف عني . اني اصارحك بدافع من عذاب شديد ..

لاذت بالصمت مقطبة فقال :

ــ يمكن ان تهبنا الشجاعة سعادة لا يستهان بها .

ــ ماذا تقصد ؟

ــ ألا يكفي ان اتكلم بالاشارة ؟

ــ لا اظن اني فهمت قصدك ..

فقال بقحة لم يعهدها في نفسه من قبل :

ــ يلزمنا مكان آمن نلتقي فيه .

هتفت :

ــ عثمان افندي !

فقال بدون مبالاة :

ــ سيكون مأوى رحيما لاثنين في حاجة الى الحب والمعاشرة ..

قامت غاضبة وهي تقول :

ــ اما ان تذهب او اذهب انا ..

ــ سأذهب ولكن فكري بالامر بروية وعقل . ولا تنسي انـــي رجل فقير !!

- ٢٥ -

لم تعد شعرة بيضاء واحدة يتعذر اكتشافها • كل فترة تطل شعرة جديدة بنظرة بيضاء باردة تنذر بايقاع جديد للحياة • لعبـــة طارئة ، يتجرعها الانسان بلا استساغة ، ثم يجد نفسه وجها لوجه مع الختـــم المؤجل • ويلقي نظرة على الحياة شاملة ، يزن اعماله ، يقيـــم ثماره ، يتلقى أنفاس المجهول بامتعاض ، يتوثب اكثر للصراع ، يسلم بالهزيمة، ولكنه يأمل ان تحل مقدسة • لا خطوة قريبة في سلم الترقية ، مدخره يتصاعد ، توتره يشتد ، جهده يتضاعف ، علاقته بأنسية تتوطد ولكن في حذر ، اما قدرية فتستحق ان توصف برفيقة العمر • في أعقـــاب صلاته يخاطب ربه :

ــ ما الحياة بغير وجودك يا رب •

ولكن يبدو ان الآخرين لا يتماسكون مثلـــــه ، فقد دق جرس التليفون ذات يوم فاذا بالمتحدثة اصيلة حجازي الناظرة :

ــ أشكر لك وساطتك المثمرة •

ــ العفو يا فندم •

ــ وكيف حالك ؟

ــ عال • الحمد لله •

ــ اني سعيدة بسماع ذلك ••

ــ شكرا •

ــ ربنا لا يحرمنا منك •

ــ كلك انسانية

ومضت ثوان من الصمت ثم واصلت :

ــ ولكن لي عليك عتاب •

ــ لا سمح الله •

ـ تركتك آخر مرة غاضبة ، ألا تذكر ؟
ـ آسف ، لم يوجد سبب للغضب •
ـ أتعتقد ذلك ؟
ـ نعم •
ـ ولكنك لم تسأل عني ؟
ـ آسف ، لا اعرف رقم تليفونك ••
ـ ولكني عرفت رقم تليفونك •
ـ أكرر الاسف •
ـ تمنيت ان تلطف الموقف بكلمة حلوة ••
ـ اني على اتم الاستعداد •
ـ حقا ؟
ـ بكل توكيد •
ـ كيف ؟
ـ لنتفق على ذلك !
وهي تضحك ضحكة مكتومة :
ـ أوما زلت تشكو الفقر ؟
ـ انه قدر لا مفر منه •
ـ من حسن حظنا ان عندي من المال الكفاية •
ـ ربنا يزيدك •
ـ هل تتوقع ان اصارحك اكثر من ذلك ؟
ـ اني على أتم الاستعداد !
ـ عظيم •• ليقم كل منا بما يخصه !
ما هو بالاستسلام ولكنه الانهيار• يستطيع ان يتخيل الواقع وراءه• العمر بها يتوسط ويميل نحو المنحدر ، وهي تعاني الوحدة وترتعد امام الشيخوخة المقبلة • لا شباب ولا جمال حقيقي • ثمة معركة لم يشهدها

ولكنه يرى عواقبها المحزنة • ماذا يفعل ؟• انه يخاف أنسية ولا رغبة له حقيقية في اصيلة ، يتمنى في لحظات يائسة لو يموت قلبه وتخمد شهوته لتطمئن نفسه في مسيرتها المضنية • وقال لنفسه في اسى :

ــ اني أعذر من يظنون بي الجنون !

- ٢٦ -

متى وكيف يفرغ للبحث عن شقة وتأثيثها ؟• ترك الايام تمر وهو لا يفعل شيئا • اهمل الموضوع جملة وتفصيلا حتى وجدها ــ اصيلة ــ تقف امام مكتبه !• ابتسم مرحبا وهو يلعنها في باطنه • قالت :

ــ معذرة عن جرأتي ••

فابتسم صامتا فقالت :

ــ لم يعد التليفون يكفي كي افهمك ••

فقال بجدية تناسب مكان العمل :

ــ واضح ان الفراغ معدوم في هذه الايام •

ــ ماذا فعلت ؟

ــ لا شيء •

ــ ابدا ؟

ــ لم يسمح العمل بدقيقة ، صدقيني ••

كانت تتكلم بجرأة اشبه باليأس ، حال من نفد صبره واشتدت مخاوفه • قالت :

ــ توقعت ان اجدك اكثر حماسة ••

ــ الرغبة متوفرة اما الوقت فلا وقت عندي ••

ـ توجد شقة في روض الفرج ..
ومدت يدها بورقة مطوية واستطردت :
ـ اليك العنوان ، عاينها بنفسك واشرع في تأثيثها ..
ثم بنبرة اغراء وابتهال :
ـ ارجو ان تعجبك وأن تكون قدم السعد ..

رأى نارا تقترب وهي تصفر . وعقب اختفاء المرأة فكر بالليالي الطويلة التي ستلحق بليالي الف ليلة وليلة . لا الليالي التي تنفق في الدراسة والترجمة وخدمة حضرة صاحب السعادة ، قربانا على طريق المجد الذي اختاره منذ اول يوم كرمز متاح للاشواق اللانهائية . فترت رغبته في المرأة لشدة اندفاعها الارعن وجودها بنفسها بلا تحفظ . انها لا بأس بها لو تحل محل قدرية ولكنه رأى فيها نارا تقترب مصفرة تود ان تلتهمه هو وآماله المقدسة الموصولة بسر كلمة الله العظيم . لن يسمح لقوة ان تقتله الا الموت نفسه باعتباره سرا من اسرار الله مثل مجده الملهم ، وما دامت الزوجة المجهولة التي سعى اليها طويلا لم تقبله فلا يصح ان ينهزم ويستسلم لتسول الارامل والعوانس .

وسمع ذات ليلة نقرا على باب حجرته . ذهل عندما رأى اصيلة وهي تتسلل الى الداخل متعثرة في خجلها وذلها . قالت بارتباك :
ـ صح عزمي على المجيء ، وقلت لنفسي اذا لمحتني عين قصدت شقة ام حسني كأنما جئت اصلا لزيارتها ..
وجلست على الكنبة وهي تلهث فقال ملاطفا :
ـ فكرة طيبة ..
ـ هل ضايقك حضوري ؟
فقال والنشاط يدب في أعماقه :
ـ بل سرني فوق ما تتصورين ..
ـ ولن تلبث ام حسني حتى تنام ، هل يكدرك ان تشك العجوز

فيما حصل ؟

ــ البتة ••

وتبادلا نظرة طويلة تبدت تحت سيالها الغامض امرأة عارية من اي اثر للكبرياء ، محض عاشقة بمدرة الدفاع • وسألت برقة ورجاء :

ــ ماذا جنيت ؟

أفاق تماما من الدهشة • صدفت نفسه عن اي موضوع وتركزت في الرغبة المتجسدة في صورة امرأة مستسلمة • تناول يدها البضــــة الباردة بعد ان شفط القلب المتقلص الدم من الاطراف • وضغط عليها ضغطات متوترة باعثا برسائله الخفية • لم تتوقع ذلك او بذلك تظاهرت• ارادت ان تسحب يدها فلم يسمح لها فقالت :

ــ ماذا فعلت ؟

ــ سنناقش ذلك فيما بعد ••

ــ ولكنك لم تحاول الاتصال بي ؟

مال نحوها حتى قبل خدها وهمس في أذنها :

ــ فيما بعد •• فيما بعد ••

ــ ولكني جئت لذلك •

ــ سيكون لك ما قصدت ولكن فيما بعد •

همت بالكلام ولكنه سد فاها بقبلة غليظة وطويلة وهو يقول بحدة:

ــ فيما بعد ••

وأعلن لحن من الالحان اللانهائية المطبيعة عن تغريـــــده المتجسد بنشاط موفور وفرحة كالمعجزة • وسرعان ما خفت تغريده حتى العدم متراجعا الى نوم ابدي ، مخلفا وراءه صمتا مريبا وراحة فاترة مشبعة بالاسى • رقد على جنبه فوق الفراش على حين انحطت فوق الكنبــــة معرضة قميصها وحبات العرق فوق الجبين وعلى العنق لضوء المصباح العاري • نظر الى لاشيء لا ينشد شيئا كأنما قد أدى المطلوب منه في

الحياة الدنيا . وحانت منه التفاتة اليها فأنكرها كلية . كأنها شيء غريب يخرج من باطن الليل ، غير الكائن السحري الذي جره الى السعير . شيء اخرس بلا تاريخ ولا مستقبل له . وقال لنفسه ان لعبة الرغبة والنفور ما هي الا تمرين على الموت ، والبعث ، وادراك مسبق لقبول المأساة بعظمة تناسب المجهول فيما يبدي من لمحات خاطفة عن ذاته اللانهائية . ودرجة المدير العام آية اخرى ولكنها تتجلى للارادة الشامخة لا للاستسلام العذب ! . وحمدا لله فقد تحصن بالبرود العاقل والقاتل ايضا . وها هي المرأة ترغب بلا شك في العودة الى موضوعها الهام ولكن من خلال تردد وخجل . تتمنى لو يبدأ هو . ولما [illegible] نظرت اليه بابتهال وأسى وغمغمت :

ـ نعم ؟

عجب [illegible] صوتها وتطفله على وحدته المقدسة . ووجد نحوها نفورا [illegible] يوشك ان يصير كراهية . انها تريد ان تهدم البناء الذي يشيده حجرا على حجر . سألت :

ـ ماذا قلت ؟

ركبه عنف طبعه المستتر المستمد من اعماق حارته . قال :

ـ لا شيء .

ـ ولكنك فعلت شيئا بلا ريب ..؟

ـ ابدا .

ـ ألم تعاين الشقة ؟

ـ كلا .

فاسود وجهها من الحزن وقالت :

ـ معذرة .. هل ينبغي ان اضع النقود بين يديك ؟

ـ كلا .

ـ الحق اني لا افهمك ..

ـ اني واضح جدا .

ـ ماذا تعني !.. لا تعذبني من فضلك .

ـ ليس في نيتي ان افعل شيئا ..

فقالت بنبرة مرتعشة :

ـ اعتقدت انك وافقت ووعدت ..

ـ ليس في نيتي ان افعل شيئا ..

ـ اذا لم يكن لديك وقت الان ...

ـ لا وقت لدي .. ولن اجده في المستقبل ..

تنفست اصيلة بصعوبة وقالت بصوت متهافت :

ـ صدقت ان شعورك مختلف ..

فاعترف قائلا :

ـ لا خير في ، هذه هي الحقيقة ..

تراجعت كأنما طعنت . ارتدت فستانها في عجلة . ولكنها تهاوت على الكنبة مرة اخرى في اعياء اسندت معه رأسها الى كفها وأغمضت عينيها حتى توقع ان يغمى عليها . دق قلبه بعنف ايقظـــه من فتوره وقسوته . لو وقع ما ليس في حسبان فربما تعرض لفضيحة منذرة بأوخم العواقب . الطريق شاق ومرير رغم ما يتمتع به من حسن السمعة فكيف اذا دهمته فضيحة مما ترحب الصحف بالحديث عنها ؟!. أوشك ان يغير سياسته كلها ، ان يخاطر بكذبة جديدة ، ولكنها تحركت في آخـــر لحظة . قامت بشيء من الصعوبة ، مضت نحو الباب بهدوء وأسى ، ثم اختفت عن نظره . تنهد في ارتياح عميق . قام الى النافذة ينظر الــى الحارة شبه المظلمة حتى رأى شبحها يمرق من الباب ، ثم يوغل نحو طرف الحارة الموصل الى الجمالية ، وسرعان ما ذابت في الظلام تماما .

وقال لنفسه ان احدا لا يعلم الغيب ، ولذلك يتعذر الحكم الشامل على اي فعل من فعالنا ، بيد ان تحديد هدف للانسان يعتبر هاديا فــي

الظلام وعذرا في تضارب الحظوظ والاحداث ، وهو مثال على ما يبدو ان الطبيعة ترسمه في خطواتها اللانهائية •

- ٢٧ -

اما أنسية رمضان فهو يحبها • عليه ان يعترف بذلك امام ضميره وأمان الله • منذ عهد السبيل الاثري لم يصدر عن قلبه مثل هذا اللحن العذب • ولذلك فعليه ان يخشاها اكثر من اي امرأة اخرى في الوجود• وهي ايضا تحبه مما يضاعف من خطورة الامر • العروس التي لا تدفع الى الامام ترجع الى الوراء • ولعله كان يتزوجها بلا تردد لو ان الذي بينه وبين درجة حضرة صاحب السعادة خطوة واحدة ، اما والحال على ما هو عليه فلن يجني من الزواج سوى المتاعب والهموم اليومية التي تستهلك القوى البشرية في غير ما خلقت له •

وجاءه يوما حسين افندي جميل ليعرض البريد كالمعتاد فلما وقع عليه بتوجيهاته لم يذهب كالمتوقع • انه شاب من موظفي المحفوظات عمل تحت رياسته خمس سنوات متتابعة وعرف بالمواظبة وحسن السلوك •

ــ أتريد شيئا ما يا حسين افندي ؟

انه مضطرب بصورة واضحة ، ويريد ان يتمخض عن شيء ، اي شيء ؟

ــ مالك ؟•• أهو امر يتعلق بالعمل ؟

اقترب الشاب اكثر كأنما ليضمن عدم وصول صوته الى الآخرين ، وقال :

ــ يوجد شيء يا حضرة الريس •

ـ ما هو يا بني ؟
ـ آسف ، ولكن لا بد من الكلام .
ـ عظيم .. اني مصغ اليك .
وسكت ليتأهب ثم قال :
ـ الامر يتعلق بالآنسة أنسية رمضان .
فيما بعد قال لنفسه انه لم يسمع الاسم او انه سمعه ولم يفقه لـــه معنى . قال بذهول :
ـ هه ؟
ـ أنسية رمضان !
ـ زميلتك ؟.. ماذا عنها ؟
فقال بصوت لا يكاد يسمع :
ـ الحق اني احبها ..
فقطب عثمان وقلبه يترنح . تساءل مستنكرا :
ـ وما شأني انا بذلك ؟
ـ اردت ان اخطبها ..
ـ كلام معقول ولكن ما شأني انا ؟
فأطرق وهو يتمتم :
ـ ولكن سعادتك ..
ارتعدت مفاصله . رمقه مستطلعا في استسلام :
ـ ماذا عني ؟
ـ سعادتك تعلم بكل شيء ..
ـ اي شيء من فضلك ؟
ـ الحق انه لولاك لتقدمت لخطبتها ..
ايقن انه هلك . لم يعد لشيء قيمة . ولا الحياة نفسها . تساءل :
ـ اولاي ؟

فقال الشاب بوجوم :

ــ شاهدت كل شيء ، هنا وفي الخارج !

بقوة اليأس نفسه توثب للدفاع المستميت . لم يحزن لحبه الضائع بقدر ما خاف على «مركزه» . قال :

ــ انت شاب سيىء الظن ، ماذا شاهدت ؟ ، ماذا شاهدت يـــا مسكين ؟ ، ولكن هكذا هم المحبون ، طالما عاملتها كابنة من صلبي ، علاقة هي البراءة نفسها ، كم اخشى ان تكون قد اسأت الى سمعتهـــا بلسانك وأنت لا تدري ولا تقصد !!

فقال الشاب ببراءة وحزن جليل :

ــ اني اعرف متى وكيف أكتم احزاني وأحافظ على سمعة من احبهم!

فقال وهو يتنهد :

ــ احسنت .. احسنت ..

ثم وموجة من الاسى تجتاحه :

ــ سلكت سلوكا خليقا بالرجال ..

من شدة رد الفعل ، والشعور غير المتوقع بالنجاة اضطربت معدتـــه فغزاه احساس بالغثيان . قال :

ــ مثلك يستحق ان يسعد بمن يحب ..

مضى عنه معذبه . بقي وحده مع حزنه . وتجسد الحزن وتهول فصار كالقدر نفسه . وأعاد اليه ذكرى حزنه القديم في الليالي الطويلة . وقال لنفسه ان الحياة لو تقيم بحظها من السرور فان حياته تعتبر ضياعا وهباء . لم يقتضينا الجلال هذا الشقاء كله ؟!

- ٢٨ -

دعا أنسية الى مقابلته في صحراء الهرم صباح الجمعة . هيأ للقاء

تلك المرة بحذر اشد من المعتاد ، فدس لها ورقة سمى فيها الميعاد وخط السير على ان يذهب كل منهما منفردا • كان صباحا من اصابيح الشتاء الجاف البارد ولكن اشعة الشمس كستهما كساء دافئا ومنعشا • وكان يرنو اليها طيلة الوقت بحزن صادق رغم اقتناعه بأنه يقوم اساسا بتمثيل دور قاس وقذر • ومن اول الامر بدت الفتاة قلقة على غير عادتها ، وقالت له :

ــ شعرت بشيء غير عادي فانقبض قلبي ••

فقال لنفسه ان للمرأة غريزة تغنيها عن العقل في معرفة شؤونها الصميمة ، وأنه لو كان للانسان عموما غريزة مثلها لمعرفة المجهول لما ظل مجهولا حتى الان • واشتد حزنه وهو يقول :

ــ الحق ان الامر يستحق التفكير •

ــ اي امر تقصد ؟

ــ علاقتنا الحميمة المقدسة •

ــ ماذا عنها ؟

ــ لعلك عجبت من صمتي ، ناقشنا كل شيء الا الجوهر ، ولم تدركي طبعا انني كنت أحترق وأتعذب طيلة الوقت ••

فلمست ذراعه باشفاق وقالت :

ــ أعترف لك بأن قلبي يزداد انقباضا !

ــ وأنا أعترف بأنني رجل أناني •

فرفضت ذلك باصرار قائلة :

ــ كلا ، لست انانيا على الاطلاق •

ــ أناني بكل معنى الكلمة ، وبسبب أنانيتي شجعتك وأوهمتك فتمادينا الى ما لا نهاية ، لن اغفر لنفسي ذلك ابدا •

ــ لم تفعل الا ما هو نبيل وطيب !

ــ لا تدافعي عني ، لعلك تساءلت كثيرا متى يتكلم هذا الرجل ،

ماذا يريد مني ؟ ، حتى متى نتلاقى ونفترق بلا تقدم حقيقي ، هـل يتسلى بي ؟!

ـ لم اظن بك سوءا قط !

ـ انا نفسي طرحتها مرات عديدة ، ولكن غلبنـي الاستسلام الوهمي للسعادة فلم احسم الامر قبل ان يستفحل ، وكم صممت على مصارحتك بالحقيقة ثم أضعف وأستسلم !

تساءلت بصوت يدل على الخيبة :

ـ تصارحني بماذا ؟

ـ آه •• لم لم أعرض عليك الزواج ؟

اختلجت عيناها وهي تسمع الكلمة المحبوبة ، نظرت اليه باشفاق ، تحولت عنه متطلعة للمجهول وكأنها تصلي صلاة صامتة لدفع البلاء •

ـ طبعا ساءلت نفسك عن ذلك والا فما معنى الحياة ؟

اطرقت كأن رغبتها في معرفة المزيد قد فترت لعدم توقعها اي خير اما هو فواصل قائلا :

ـ اني مريض ••

ـ لا ••

ندت عنها بخوف صادق فقال :

ـ لا أصلح للزواج !

حدقت فيه بذهول فمضى :

ـ لا يغرنك منظري فمرضي ليس في القلب او الصدر ولكنه يعوق تماما عن الزواج ••

أطرق كالمحزون فسمع تنهدة حادة مزقت قلبه • اوشك ان يتحرر من كافة التزاماته وأن يكب على قدميها بشفتيه وأن يمضي بها الـى المأذون ، ولكن القوة الاخرى صدته وجمدته •

ـ لم أهمل ، ذهبت الى اكثر من طبيب ، لم أفقد الامل ولولا ذلك لصارحتك من زمن بعيد ، ولكن لا فائدة ، لا يجوز ان أستأثر بك اكثر من ذلك والا قضيت على مستقبلك الى الابد !

ـ ولكن كيف أستقبل الحياة بدونك ؟

ـ انت صغيرة ، جرح الشباب سريع الالتئام ..

ـ لا أصدق ، انه كابوس .

ـ لا يجوز التمادي في الخطأ بعد ذلك .

ـ لا أصدق ..

ـ كل مصيبة غير متوقعة فهي لا تصدق ولكن الحياة تبدو احيانا سلسلة من المصائب غير المتوقعة ، ولكن عليك ان تهتدي الى سبيلك قبل ضياع الفرصة ..

فتمزق صوتها بالجزع وهي تسأله :

ـ ماذا تريد ؟

ـ أن نكف عن السير في طريق مسدود !

ـ لا استطيع .

ـ لا بد مما ليس منه بد ، فمن الجنون ان نستمر ..

وتجنب النظر اليها . كان قد نفذ خطته حتى النهاية بنجاح واحكام. وبنجاحها الوحشي وجد نفسه في الفراغ منفردا بعذاب أليم ، مكللا بعار الجحيم ، بلا ايمان ولا عزاء . وقال لنفسه انه لا نجاة له الا بالجنون . الجنون وحده هو الذي يتسع للايمان والكفر ، للمجد والخزي ، للحب والخداع : للصدق والكذب ، اما العقل فكيف يتحمل هذه الحياة الغريبة ؟.. كيف يشيم ألق النجوم وهو مغروس حتى قمة رأسه في الوحل ؟!

وبكى طويلا في الليل ..

بدا ان ظلمة السحب تنضح بشعاع يهفو خلفها • فقد علم بأن أنسية رمضان خطبت الى حسين جميل • سعد بالخبر باعتباره بشير النجاة . وقال لنفسه :

ـ استطيع الان ان احزن على الحب الضائع ببال رائق لا تعكره المخاوف ، استطيع ان أنهل من العذاب حتى أستنفده وأتحرر منه ؛ واني بذلك لخبير ••

ولم يكن صادف في حياته من هي اكفأ منها على اسعـــاده • ولا سيدة نفسها • جميلة وذكية وطاهرة وقد احبته بصدق ونقاء • وبات يؤمن بأنه لن يظفر بمثلها مهما ابتسم له الحظ وأنه جزاء عادل علـــى اي حال •

وحمل تيار الزمن حدثا آخر فقد تخلف حمزة السويفي عن العمل ؛ وعرف في الادارة انه يعاني ازمة ضغط جديدة أشد من الاولى وأخطر • ومضى اليه يعوده • ووجده راقدا في استسلام كامـــل هذه المرة ، وأطياف من العالم الآخر تلوح في نظرة عينيه الغائمة • تأثر لمنظره ورأى فيه المنظر الاخير الذي يترصد الجميع بمختلف درجاتهم • وقال له :

ـ سلمت ايها الانسان الكريم ••

ابتسم المدير ممتنا ، ومتسولا اي كلمة طيبة في ضعفه الداهم :

ـ اشكرك يا اخي ، انت رجل نبيل بقدر ما انت كفء وقادر •

ـ ما هي الا سحابة تمر ثم تعود لتتربع فوق كرسيك العظيم ••

فتقلص وجه الرجل ليمنع دمعة وقال :

ـ الحق اني لن اعود ••

فقال محتجا :

ـ لا سمح الله ••

ـ ولكنها الحقيقة يا استاذ عثمان •

ـ انت دائما تبالغ ••

ـ ولكنه تقرير الطبيب ، قال لي صراحة انني بالطاعة والدقة أنجو من الازمة ولكن علي أن أعتزل العمل فورا ••

غلب الاسى على عواطفه المتضاربة فقال :

ـ ولكن رحمة الله واسعة ومعجزاته لا نهاية لها ••

ـ لا اهمية للحرص على العمل ، لقد زوجت البنات ، والابن الاخير في السنة النهائية من كلية الزراعة ، أديت رسالتي كما ترى ، ومـــا أحتاجه الان فهو راحة البال •

ـ متعك الله بكل طيب •

قال بفخار رغم وهنه وتعبه :

ـ الحمد لله ، قمت بواجبي في الوزارة كما تعلم ، وأديت رسالتي نحو الاسرة ، وعشت كما سأعيش مستورا كثير الاحباب والاصدقاء ، فيم يطمع المرء اكثر من ذلك ؟

ـ انت ذلك وأكثر يا صاحب الفضل والفضيلة ••

ـ نحن نمضي واحدا في اثر واحد ، هل تذكر المرحوم سعفـــان بسيوني ؟ ، كل من عليها فان ، ولكن العمل الطيب يبقى الى الابد •

ـ صدقت في كل ما قلت ••

ونظر اليه طويلا ثم قال :

ـ وفقك الله الى ما فيه صلاحك •

اشتد به التأثر • وبقي التأثر معه طويلا • وامتلأ في جينه بالعبرة والموعظة حال الراجع من دفن عزيز • ولكنه افاق في الوقت المناسب كذلك • وقال لنفسه :

ـ ان أحزان الدنيا توجد لا لتثبط الهمة ولكن لتشحذها ••

واتجه تفكيره بكل قوة الى الدرجة التي ستخلو تقريبا • وهو لا

يختلف اثنان في الشهادة له بالمقدرة والاستقامة والورع ؛ بل هو اكفأ من وكيلي الادارة ولكن احدهما في الثانية والآخر في الثالثة ، ولو جرى العدل بغير اعتبار الا للكفاءة وحدها لكان أحق منهما بدرجة مدير الادارة ، ولكن كيف يثب من الرابعة الى الاولى دفعة واحدة ؟!.

وأحيل حمزة البسيوني الى المعاش بناء على طلبه . وأجريت حركة ترقيات شاملة في الادارة من الثامنة الى الاولى ، فرقي اسماعيل فائق الى درجة المدير ، كما رقي عثمان بيومي الى الدرجة الثالثة وكيلا للادارة . وهكذا غير ضغط الدم شتى المصائر سلبا وايجابا . وسعد عثمان بالترقية يوما ولكن سرعان ما ادركه الفتور . لقد كان حمزة السويفي موظفا قديرا ولكن لا يوجد بعده من هو أحق بمركزه منه هو ، وانه لمن المضحك المبكي ان يقدم رجل مثل اسماعيل فائق مديرا للادارة . ومضى الى حضرة صاحب السعادة المدير العام ليشكره . ولم يكن يداخله شك في انه اقرب الموظفين الى قلبه وتقديره ، وانه يعتمد عليه في اعمال الادارة ونشاطه الخاص على السواء . صافحه ، وأعرب لسعادته عن شكره بلسان بليغ . وقال صاحب السعادة :

ـ انك لم تعرف الظروف كلها ، لقد تراكمت على مكتبي التوصيات من الوزير والوكيل والشيوخ والنواب ..

ونظر اليه مليا ثم استطرد :

ـ قلت لكم ما تشاءون الا درجة واحدة لرجل وساطته هي مقدرته وخلقه .

فلهج بالشكر لسانه وكتم في القلب احزانه فعاد صاحب السعادة يقول :

ـ لا خفاء بيننا في ان اسماعيل فائق ضعيف وجاهل .

فقال بامتعاض :

ـ لا خلاف على ذلك يا صاحب السعادة ..

ـ فالثقل سيقع عليك وحدك بالرغم من انك الوكيل الثاني •
ـ اني في الخدمة دائما ••
فقال بهجت نور متأسفا :
ـ ماذا كان في وسعي ان افعل ؟•• انه كما تعلم من اقرباء الوكيل•
ـ لا لوم عليك يا صاحب السعادة ••
ـ على اي حال مبارك ومصيرك ان تنال حقك كاملا غير منقوص••
ورجع راضيا بعض الشيء ولكن امتعاضه مضى يتصاعد فنسي فرحة الترقية • ولعن الجميع بغير استثناء • وقال جزعا :
ـ العمر اسرع من جميع حركات الترقيات !

وودع موظفي الارشيف فصافحهم وهو يتلقى تهانيهم . وعندما جاءت أنسية لمصافحته لاحظ ـ في دوامة من الانفعالات المتضاربة ـ ان بطنها يتخلق بصورة جديدة وسعيدة !• زوجة وحبلى ولا شك ان حسين سيسعد سعادة خاصة بنقله الى الادارة • وجلس في الادارة كوكيل ثان ولكنه شعر باستعلاء على من حوله ، وبأنه اهل الثقة الاولى ، وبأنه الحجة في الادارة واللوائح والميزانية فضلا عن دراسته للقانون والاقتصاد وثقافته العامة وتفوقه الراسخ في اللغات • وتساءل:
ـ ما قيمة هذه المزايا حيال سرعة العمر او امام مرض مباغت ؟!
وتوكد لديه ان الوكيل الاول والمدير أصغر منه في السن . وأن الدرجات لن تخلو الا بمعجزة مجهولة ، او بوفاة عاجلة ، او بحادث يقع في الطريق !
ـ أستغفرك اللهم لأفكاري وتمنياتي ••

وكان كلاهما يتمتع بصحة جيدة وطبع بهيج وجهل مطبق وعقل مغلق • وان اي درجة سوى الدرجة المرموقة لا يمكن ان تبرر التضحيات الجسيمة التي بذلها من عمره وسعادته وراحة باله • ولعله لم يشعر في اي وقت مضى بما يشعر به الان من حاجته الى زوجة قرية

رافعة ، قبل ان تنقضي مدة خدمته او يفاجئه مرض او يدهمه الموت . لذلك طلب من ام حسني ان تخاطب ام زينب بشأنه من جديد بعد ان رفعه الله الى الدرجة الثالثة كوكيل للادارة . وفي تلك الايام ضاعف من حذره وهو ذاهب الى قدرية بالدرب . تراءى له ان يتنكر في ملابس بلدية حتى لا تعرفه عين . ومضى اليها بجلباب فضفاض وعباءة ولاسة فلم تعرفه حتى سمعت صوته . ولما عرفته ضحكت كما لم تضحك من قبل وسألته :

ــ رفتوك من الحكومة ؟

وكان العمر ينحدر بها رويدا رويدا فتمادت في الضخامة والانطباع بطابع الفحش والشهوانية ، ولكن العلاقة بينهما توثقت وداخلتها ألفة انسانية . وقد مر معها بجميع الاطوار من الرغبة الى الملل ثم الى العادة التي لا يسهل الاستغناء عنها . وباتت هي والحجرة العارية والنبيذ الجهنمي عناصر متكاملة وحميمة وأليفة ، تهبه الراحة والتأمل والاسى . وتدفعه الى مواجهة الحياة في بدائيتها القاسية ، غير مبال بسلوك صاحبته الحيادي وتصرفاتها المهينة ، مما لم يحرمه ــ وهو معها ــ من وحدته المقدسة . وكان يقول لنفسه :

ــ عجيب انني لم امارس الحب مع امرأة عادية الا مرة واحدة رغم هذا التقدم في العمر !

وتذكر أصيلة ، فتذكر بالتالي انها كانت جريمة وليست ممارسة للحب . وقال ايضا :

ــ توجد معاشرة صحية انسانية .

ثم وهو يتنهد :

ــ كما يوجد المجد .

ثم وهو يتنهد بعمق اكثر :

ــ وكما يوجد الله وهو اصل كل شيء ..

ثم وهو يتنهد بعمق اكثر وأكثر :
ـ ونحن تتذكره بالخير وتتذكره ايضا بالشر !

- ٣٠ -

ظهرت امارات العجز على ام حسني رغم صمودها للزمن : فضعف بصرها حتى الحضيض ، وأصابها عرج : فلا تمشي الا متوكئة على عصا هي يد مكنسة قديمة . ويئس هو تماما من ام زينب حتى قال لنفسه حانقا :

ـ ان الذين يثرثرون حول صراع الطبقات لهم عذرهم !

ولم تعد ام حسني تصلح لعملها الجليل : أصابها ما يشبه الخرف ، وعرضت عليه يوما عروسا ناسية انها انتقلت الى رحمة الله منذ أعوام. ومرة ـ عقب صلاة الجمعة ـ وكان يجلس في الكلوب المصري رأى اصيلة وهي تسير بصحبة سيدة اخرى . عرفها من اول نظرة : رغم انها تغيرت لدرجة ازعجته . تهدلت ككرة مثقوفة : وجف ينبوع الأنوثة من وجهها ، وحل محله خيال غامض لا هو انثى ولا هو ذكر . مضت بخطوات فظة مثالا للتعاسة والتدهور . وشيء قال له ان الموت يطاردها ، وأنه يقترب من زمانه ومكانه : وان زمانه الذي تقدس بالخلود يوما مضت تنقشع عنه الاوهام العذبة . وتنجلي له الحقيقة الابدية المتعالية بجلال قسوتها . ألا زالت تذكره . اصيلة ؟ لا يمكن ان تنساه ، لقد نفذ الى أعماقها بثقله وغدره وأنانيته مخلفا وراءه الكراهية واللعنة . اما أقران صباه فهم يحترفون الحقارة ويتكاثرون بالذرية ، ويملئون الجو بقهقهاتهم . وضاعت تماما عواطف الطفولة البريئة

وخيالاتها الجامحة ، طمرت تحت طبقات كثيفة من التراب ، مثل حارة الحسيني ، التي تغير جلدها ، ربوع كثيرة تهدمت وقامت مكانها عمائر صغيرة ، وشيدت زاوية مكان موقف الحمير ، وكثيرون من اهل الحي هاجروا الى المذبح . كل شيء يتغير . النـــور والمياه دخلت البيوت ، والراديو يصخب ليل نهار ، والملاءة اللف تتوارى ، حتى الخير والشر يتجددان ويتنوعان . كل ذلك يحدث وهو ما زال في الدرجة الثالثة ، مع عمره المتقدم ، أهذا جزاء الجهد الخارق والتفاني الجليل ؟. ألـــم يعلموا بأنه انسان تلخص في خبرة مؤيدة بالعلم والعمل ؟. وان مذكراته الرسمية وبياناته الخاصة بالميزانية وفتاواه الرائدة في الادارة والمخازن والمشتريات لو جمعت في كتاب لكانت دائـــــرة معارف في الشؤون الحكومية ؟. خبرة نيرة منزوية في وظيفة وكيل ثان للادارة كأنها مصباح كهربائي قوة خمسمائة شمعة ثبتت في جدار مرحاض زاوية بقرية !. وقال لنفسه ايضا ان الموظف مضمون غامض لم يفهم على وجهه الصحيح بعد . الوظيفة في تاريخ مصر مؤسسة مقدسة كالمعبد ، والموظـــــف المصري أقدم موظف في تاريخ الحضارة . ان يكن المثل الاعلى فـــي البلدان الأخر محاربا او سياسيا او تاجرا او رجل صناعة او بحارا فهو في مصر الموظف . وان اول تعاليم اخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا من اب موظف متقاعد الى ابن موظف ناشيء . وفرعون نفسه لم يكن الا موظفا معينا من قبل الآلهة في السماء ليحكم الوادي من خـــلال طقوس دينية وتعاليم ادارية ومالية وتنظيمية . ووادينا وادي فلاحين طيبين يحنون الهامات نحو ارض طيبة ولكن رؤوسهم ترتفع لـــدى انتظامهم في سلك الوظائف ، حينذاك يتطلعون الى فوق ، الى سلـــم الدرجات المتصاعد حتى أعتاب الآلهة في السماء . الوظيفة خدمة للناس وحق للكفاءة وواجب للضمير الحي وكبرياء للذات البشرية وعبادة لله خالق الكفاءة والضمير والكبرياء .

ومضى ذات يوم للتفتيش في المحفوظات • وهناك رأى أنسية وقد انتقلت الى طور النضج الانثوي والوظيفي ايضا فأصبحت مراجعة في الوظيفة التي خلت بانتقال زوجها الى وزارة المعارف • ولم يتمالك ان قال لها وهو يصافحها :

ــ ايام ••

فابتسمت في حياء صادق فقال :

ــ سعيدة ان شاء الله ؟

ــ الحمد لله •

فقال بعد تردد وباغراء لم يستطع مقاومته :

ــ من حسن الحظ اننا ننسى •

فقالت ببساطة ومودة :

ــ لا شيء ينسى ولا شيء يبقى !

وتفكر في قولها طويلا • وغادر المحفوظات وهو يقول لنفسه :

ــ يا أنسية احببتك كثيرا في الايام الخالية •

وعاد الى مكتبه فوجد نشرة مرسلة من ادارة العلاقات العامة عرف من شكلها انها تحمل نعي موظف او قريب له • قرأ :

«انتقل صباح اليوم الى رحمة الله المغفور له اسماعيل بك فائق مدير الادارة ، وستشيع الجنازة •••» الخ •

اعاد القراءة • قرأ الاسم مرات • مستحيل • كان حتى الامس يباشر عمله وهو في غاية من الصحة والنشاط • وقد شرب قهوة الصباح معه في مكتبه ، وكان الرجل يقول مرددا اهتماماته المعروفة :

ــ البلد تموج بالافكار المتضاربة ••

فابتسم عثمان ولم ينبس فقال اسماعيل :

ــ كل واحد يعتقد انه رسول العناية الالهية •

وهز رأسه ثم تساءل :

ــ بأي عقل نشرع في اعداد الحساب الختامي ؟

فأجاب عثمان بهدوء ساخر :

ــ بعقلي انا !

فضحك الرجل ضحكة عالية . وكان يسلم بكفاءة مرؤوسه وانه العمود الفقري للادارة . لم تكن بينهما مودة ولا عداء . رباه كيف مات الرجل !. وذهب الى الوكيل الاول المعروف بصلته الحميمة بالراحل وسأله :

ــ هل عندك علم عن هذه المصيبة ؟

فأجاب الوكيل الاول بذهول :

ــ شرع في تناول الافطار ، ثم شعر بتعب مفاجيء فقام ليستلقي على ديوان ، ولما لحقت به حرمه لترى ما به وجدته جثة هامدة !

ان ما يوفر لنا بعض الطمأنينة هو اعتقادنا بأن المـــوت منطقي ، يمارس وظيفته من خلال مقدمات ونتائج . ولكنه كثيرا ما يدهمنا بلا نذير كزلزال . تمتع اسماعيل حتى آخر لحظة بكامل حيويته . وما حدث له قد يحدث لأي انسان ، أليس كذلك ؟. وهكذا فلا ضمان البتة لصحة او لخبرة او لعلم . وهزه الخوف من اعماقه .

ــ خير تعريف للحياة انها لا شيء ...

ولكن هل وقع جديد لم يكن له به علم ؟. كلا ، غير انه ليس من سمع كمن رأى . وسيستمر خوفه يوما او يوما وبعض يوم . وفي تلك الساعات تتساوى المكاسب والخسائر ، والمسرات والاحزان ، وتتوارى معاني الاشياء .

ــ ما قيمة ما بذلت طيلة العمر من جهد وتفان ؟!

ولازمته وساوسه في الجنازة ، والمأتم ، وحتى احاديث الموظفين المتنوعة في المأتم لم تلغ وساوسه ، ولكنه شعر بامتنان لانه ما زال حياً.

ــ ما البطولة الحقة ؟.. هي اننا نعمل بلا هوادة رغم علمنا بكل

ذلك .

وسرعان ما طرد التفكير في درجة مديـــر الادارة ما عداه . ان الوكيل الاول مرشح لوظيفة في القضاء ، والطريق واضح بعد ذلك ، وهو ان يرقى الى الثانية وينتدب مديرا للادارة فيستحق الترقية اليهـا بعد مضي عام على شغلها .

تجسد له الامل حقيقة ملموسة .

ولكنه بوغت بقرار تعيين مدير ادارة جديـــد نقلا من وزارة المواصلات ..!

- ٣١ -

لا .. لا .. لا ..

ذلك ما لم يخطر له ببال . وحقد على حضرة صاحب السعادة بهجت نور ولعنه الف لعنة . هو من كان ينبغي ان يدافع عنه . عليهم اللعنة.. هل يتصورون ان يعمل لحساب غيره طول عمره ؟. ومن هو المديـــر الجديد ، من يكون عبد الله وجدي هذا ؟. كيف يقدم له نفســـه كمرؤوس ؟. انه لشيء مخجل . الخجل يطارده في اروقة الوزارة ، وما اكثر الشامتين .

ودعاه بهجت نور الى مقابلته وقال له :

ـ اني آسف جدا يا استاذ عثمان ..

فقال له بصراحة :

ـ انه اليأس من الحياة الفاضلة ..

ـ لا .. لا ، انه قريب الوزير !

ـ اني احسد الموظفين الكسالى .

ـ أكرر الاسف ، وأخبرك بأن سعادة وكيل الوزارة آسف ايضا..

وتمهل دقيقة ثم قال :

ـ لا تيأس ، فالرأي متفق على ترقيتك وكيلا اول عقب نقل شاغلها مباشرة في هذا الشهر ..

لا فائدة . الدرجات لا تهمه الا باعتبارها وسيلة لأمله المنشود الذي كرس له العمر . والمدير الجديد في الاربعين من عمره . شاب او اكثر من ذلك بقليل . واذا سارت الامور سيرها الطبيعي فسوف يحال على المعاش وهو وكيل للادارة او وهو مديرها على الاكثر اذا وقعت معجزة. تبدد حلم الحياة وبات مستحيلا . ومات الماضي بعد ان تمخض عن وهم اسود . ولعله كان خيرا له لو اقام حياته كأبيه فوق الكارو . ولاول مرة في حياته يدهمه اليأس ، فقد بدت نهاية العمر اقرب كثيرا من جوهرة الامل . وفكرة جديدة تسلطت عليه بقوة قاهرة لم يعهدها من قبل هي الزواج . لا يجوز تأجيلها بعد اليوم ولا فائدة ترجى من تأجيلها ، وبحسبه ان ضاعت اطيب فترات العمر الصالحة للحب والزواج . ما اشد حاجته الى شريكة ، الى عاطفة صادقة ، الى مشاركة امينة ، الى دفء البيت ، الى الذرية ، الى علاقة انسانية ، الى قلب ويد ولسان ، الى ملجأ من العذاب ، الى درع ضد الموت ، الى منقذ من الضياع ، الى محراب مناسب للايمان ، الى محطة راحة من الاحلام الخرقاء ، الى هدنة مع الحرص والحرمان والوحشة .

ـ المرأة هي الحياة ، الموت نفسه يكلل بجلاله الحق بين يديها ..

ولن يلجأ الى ام زينب ، ولا فائدة ترجى اليوم من ام حسني بعد ان اقعدها العجز ، ولكن ثمة فتاة جديدة في الادارة تدعى احسان ابراهيم، لم يتردد في إظهار تودده اليها . ذلك انه يريد ان يتزوج اليوم ان امكن . وكلما بات ليلة وحيدا اشتد جزعه . كأن الرغبة في الزواج

كانت تنمو في داخله وهو لا يدري حتى انفجرت كبركان • ولم تفهم احسان تودده على الوجه الصحيح ، ولعلها استبعدت ان يغازلها رجل في سنه !• وما حيلته ولم يعد يوجد حب كأيام سيـــدة وأنسية ، ولا رغبة جامحة كأيام سنية وأصيلة •

واتهز فرصة وجودها ــ احسان ــ يوما في حجرته لعمل فسألها:

ــ تسمحين لي بسؤال غريب بعض الشيء يا آنسة احسان ؟

ــ طبعا يا سعادة البك •

فتردد قليلا ثم سأل :

ــ أأنت مخطوبة ؟

تورد وجهها ورمقته لاول مرة بنظرة انثى لا موظفة وأجابت :

ــ نعم يا سيدي •

شعر بخيبة ولكنه قال :

ــ معذرة فاني لم أر خاتما في اصبعك •

ــ أعني في حكم المخطوبة •

تفكر مليا ثم قال :

ــ لدي رجاء ولكن يجب ان يبقى سرا بيننا ؟

ــ أفندم ؟

ــ هل أطمع في ان تدليني على عروس ؟

فتفكرت في ارتباك ثم قالت في حذر :

ــ جميع من اعرف من قريبات وصديقات يقاربنني في السن فهن لا يلقن بك !

يا لها من ترجمة مهذبة لـ «لا تليق بهن» ، وتمادى من شدة يأســه فسألها :

ــ ألا يمكن ان يتزوج انسان في مثل سني ؟

ــ لم لا ؟ ، توجد عروس مناسبة لكل سن !

ـ شكرا ومعذرة عن مضايقتك •
ـ أرجو ان أوفق لخدمتك ••

وعند ذهابها استشاط غضبا • تصور انها كان يجب ان ترحب بـه لنفسها او لاحدى القريبات او الصديقات • اذن قد صار كهنة مثـل فضلات المخازن التي يعرضها للبيع عند الجرد السنوي • والظاهر انه لن يكون أسعد حظا في مسألة الزواج • ولو نال امله المنشود وحلم العمر في حجرة صاحب السعادة • ها هو الزمن يلهبه بسياطه على حين انه لم يعد يقوى على العدو • وبسرور كل يوم اشتد تسلط فكـرة الزواج عليه حتى كادت تزاحم هوس الدرجة • ولم ترجع اليه احسان بجواب • ومن جنونه راح يحاول مغازلة النسوان في الطرقـات والباصات بلا خبرة وبلا نجاح حتى اضطر الى الكف عن ذلك وهو يقول متأوها :

ـ ما أضيع العمر ••

وتساءل بامتعاض عما يجعل زواجه متعسرا بهذه الصورة حتى بعد ان نزل المعوقة الاولى • السن بلا شك مثبطة ولكنها ليست كل شيء• انهم يتحرون عنه وسرعان ما يعرفون كل شيء عن أصله وفصله ، هذه هي الحقيقة الاخرى المخزية • انه في الحقيقة كهـل ذو منبت حقير ، والله أعلم بما يقال عنه بالاضافة الى ذلك ، فان رجلا متفوقا مثله خليق باثارة عواطف الحسد في النفوس ، وطالما شعر بأنه بلا صديق حقيقي في هذه الدنيا ، وبأنه وحيد متعال عن الضعف البشري !

وحمله الليل ـ كالعادة الرتيبة ـ الى الحجرة العارية ، الى قدرية• وقال لنفسه بمرارة ما اجمل ان يكون نصيبي من الدنيا درجة وكيـل ادارة وبغيا نصف زنجية !• وكانت تقول له ضاحكة :

ـ لاول مرة تشرب قدحين من النبيذ ، هل قامت القيامة ؟

اما القيامة فقد قامت وها هو يشعر بدوار غريب في رأسه • قال

اها بلا مناسبة :

ـ اعلمي يا قدرية اني رجل مؤمن .

فلفت شعرها الخشن بمنديل احمر وقالت :

ـ الحمد لله ..

ـ ولولا ايماني بأن الدنيا مقدسة بما هي من صنع الله لرضيت بحياة البهائم ..

فنظرت اليه نظرة بلهاء وقالت :

ـ قرروا الغاءنا عليهم اللعنة ..

فواصل بلا انتباه الى قولها :

ـ والله سبحانه ..

فقاطعته :

ـ قرروا الغاءنا ..

ـ أفندم ؟

ـ ألم يبلغك ما يقال عن الغاء البغاء ؟

كلا . انه لا يقرأ في الصحف الا الوفيات وشؤون الدولة والدواوين فتساءل بانزعاج :

ـ حقا ؟

ـ نبهوا علينا بالفعل .

ـ خبر غريب ..

ـ وعدونا بعمل لمن تريد عملا ، اي عمل ؟ ، عليهم لعنات الدنيا والآخرة ، هل أصلحوا كل شيء فلم يبق الا نحن ؟!

ـ لعله كلام ، ما أكثر الكلام في هذا البلد ..

ـ يا سيدنا لقد ابلغنا رسميا بالامر ..

فسأل بجزع ورعب :

ـ ومتى يتم ذلك ؟

ـ قبل نهاية هذا العام ..

وساد صمت حتى ضجت الحجرة بأصوات المعربدين في الحارة . كم من مصائب توقعها أما هذه المصيبة فلم تجر له على خاطر . وقال بأسى :

ـ ستنتشر بيوت الدعارة في كل مكان ..

ـ والامراض كذلك .

ـ وآلاف من بنات الناس سيتعرضن للفساد ..

ـ ماذا تقول لمن لا عمل لهم ؟

وتنهد ثم سألها :

ـ وعلام نويت ؟

ـ على اي حال لن اقبل ان اعمل غسالة في مستشفى .

ـ هل يمكن ان اعرف عنوان بيتك ؟

ـ سنكون تحت رقابة مشددة .

وشعر بيأس لا يطاق وسألها :

ـ ألم تكوني فكرة عن المستقبل ؟

فقالت بثقة :

ـ سأتزوج ، لم يبق لي الا الزواج ..

ولطمه قولها فملأ القدح الثالث ، وسألها :

ـ عندك عريس ؟

ـ ما أسهل ان يوجد !

ـ ولكن كيف ؟

فقالت في مباهاة :

ـ عندي خمسمائة جنيه ، ممكن أجهز شقة بمائـــة وخمسين . وأحتفظ بالباقي كاحتياطي . ألا يرحب كثيرون بالزواج مني في تلك الحال ؟

ــ معقول جدا ٠٠

فقالت وهي تضحك :

ــ ان وجدت عريسا مناسبا فاخبرني ٠٠

وعند منتصف الليل وهو يتسلل تحت البواكي صادف سكران يتقايأ فتقزز لدرجة غير محتملة ٠ وشعر بوحدته وضياعه ويأسه وبرغبة في الانتحار ٠ وغير طريقه بلا تفكير ٠ رجع الى الدرب مترنحا فصادف قدرية تهبط السلم في طريقها الى مأواها ٠ اوقفها بيده وقال لها :

ــ قدرية ٠ وجدت لك الزوج المناسب ٠٠

لم ير وجهها في الظلام ، ولكن خمن تأثير قوله فقال :

ــ لنتزوج في الحال !

- ٣٢ -

وتم الزواج في اليوم التالي مباشرة ٠ ولم تذهل المرأة لقراره كما توقع ٠ رمقته بنظرة متفحصة لتتوكد من صدقه ، فلما تبين لها صدقه احنت رأسها بالقبول ٠ وقال لنفسه لعلها تعده الطرف الرابح في الصفقة بسبب الخمسمائة جنيه !٠ وقال لها بعجلة :

ــ لنذهب الى المأذون توا ٠

فقالت وهي تضحك في سعادة :

ــ أفق اولا وانتظر طلوع النهار ٠

وبات الليل في شقتها الصغيرة بعطفة الشماشرجي وفي الصباح قال لها :

ــ نعد بيتنا الجديد ثم نتزوج ٠

ولكنها قالت باصرار نهائي :

ـ بل تتزوج ثم نعد بيتنا .

وجيء بالمأذون الى البيت . واقتضت الاجراءات شاهدين فلم تجد الا قوادين ممن كانوا يعملون معها . وجرت المراسم البسيطة وهو يتابعها بذهول . ما هذا الذي يجري ؟. واجتاحه شعور ممزق بالقلق بلغ حد الرعب فتمنى لو يقع حادث من عالم الغيب فيبدد سحابات الكابوس الذي يعاني . ثم اجتاحته موجة من الاستسلام بلغت حد الاستهتار . ولما ادلى باسمه وعمله وقع ذلك من المرأة والقوادين موقع الذهول . قال لنفسه انهم سيتهمونه بالجنون كما يتهمه الآخرون . ولعله من الانصاف ان يعترف ـ بدءا من اليوم ـ بأنه مجنون . كهلة نصف سوداء في ضخامة بقرة مكتنزة تحمل فوق كاهلها نصف قرن من الابتذال والفحش . هكذا تحققت الامنية التي تاق الى تحقيقها بجنون، فأصبح زوجا ، كما اصبحت قدرية ـ رفيقة شبابه ـ زوجة له . ترى ماذا فعل بنفسه ؟!. وقال :

ـ علي أن أبدأ حياة جديدة ..

ولاعجابه بروض الفرج ـ الذي رآه وهو يعود حمزة السويفي ـ استأجر به شقة من ثلاث حجرات وصالة . ومضيا يؤثثانها معا بعد ان ألزمها بالحجاب ، باسم الحشمة في الظاهر ، وفي الحقيقة خوفا من ان تقع عليها عين زبون قديم او حديث . ابتاعا حجرة للنوم وثانية للسفرة وثالثة للمكتبة والجلوس والاستقبال ، وثيابا لها وله ، وراديو وغير ذلك . وقد اسهمت في التجهيز بمائة جنيه ورصد هو له بمثلها . وبدافع من الاستهتار الذي ركبه مال الى تغيير سياسته نحو «النقود» فأنفق ـ كلما دعا الداعي ـ باستسلام يائس غطى على الالم المعتاد في مثل تلك الاحوال ، وتملكته رغبة قوية في الاستمتاع بطيبات الحياة التي طالما حرم نفسه منها . وودع ام حسني وداعا مؤثرا فذهلت العجوز

لقراره وبكت قائلة :

ــ لا تهجر منبتك فليس في ذلك خير •

ولكنه هجره بلا اسف ، ولم يكن مما يصح التفكير فيه ان يجيء بقدرية الى حارة الحسيني ، ونظر اليه بصفة عامة كرمز للبلي والحرمان والضياع والذكريات المحزنة • أغرق آلامه الظاهرة والخفية في المتع المتاحة ، وأصر على تذكير نفسه ــ واقناعها ــ بأن قدرية هي المرأة الوحيدة التي احبها حبا حقيقيا ، والا فكيف عاشرها ذلك العمر الطويل كله ؟!• وها هي لا تألو جهدا في لعب دور ست البيت في الوسط الجديد «الراقي» الذي يعد الانتقال اليه من «الدرب» وثبة خيالية • ودعا الله ألا تراها العيون التي عرفتها • ونصحها قائلا :

ــ تجنبي الاختلاط بالجيران •

فسألته :

ــ لم ؟

ــ الناس أخلاقها لا تسر !

وكان يخشى ان يقع خلاف بينها وبين احدى الجارات فتنسى تحفظها وتنفجر براكين الفحش الكامنة في أعماقها • عدا ذلك فانه لا يجحد اجتهادها الصادق في اسعاده وحرصها على النجاح في حياتها الجديدة • وبمضي الايام اطمأن الى الحياة الجديدة ، سلم بواقعها ، ونعم بما وفرته له من أنس وراحة ونظام ونظافة ، وها هو يصلي بلا قلق ولا حرج ، بل ها هو يتقرب الى ربه بما أنقذ من روح ضائعة ، ولعلهما روحان لا روح واحدة •

واعتقد ان حياته الدنيا قد كملت بالمقسوم له وانه آن له ان يفكر في آخرته • قال :

ــ واجب علي ان اشيد لي مدفنا !

واستشار اهل الخبرة ، وبفضلهم اشترى ارضا في الخفير ، وشرع

في بناء قبر مناسب . وكثيرا ما تفقد العمل بصحبة مهندس من الادارة الهندسية بالوزارة . وسأله المهندس :

ـ أليس للاسرة مقبرة قديمة ؟

فأجاب بثبات :

ـ قديمة جدا ، واكتظت بالآباء والاجداد ، فدعت الضرورة الى بناء هذه المقبرة ..

فقال المهندس :

ـ شتان بين الجديد والقديم في القبور . القبر الجديد بناء عصري جميل ..

ـ انا لا اهتم بتملك بيت في الدنيا فشقة مستأجرة تفي بالغرض ولكن لا مناص من تملك قبر والا ضاعت كرامة الانسان ..

فضحك المهندس وقال :

ـ في الهند يحرقون الجثث ..

فقال متأففا :

ـ أعوذ بالله ..

فضحك المهندس كرة اخرى وقال :

ـ أتريد رأيي ؟ ، النار أحفظ لكرامة الجثة من التراب . أليس لديك فكرة عن أطوار تحلل الجثة في القبر ؟

فقال بضيق :

ـ كلا ، ولا داعي البتة لهذه المعرفة !

وتفكر قليلا ثم سأل المهندس :

ـ ألا يحسن بناء دورة مياه ؟

ـ ستستعمل في غيابك ، وبطريقة مقززة !

ـ ولكن لا بأس من زراعة شجرة او لبلابة ..

ـ ليكن ، ويمكن ريها من الخارج ..

وتم البناء فذهب لتسلمه ودفع باقي الاتعاب • تفحـــــص القبر باعجاب • كان بابه مفتوحا ، والسلم يرى في تدرجه نحو المنامة متألقا بنور الشمس • وانحنى قليلا ليلقي نظرة على ارضه المنبسطة الجديدة المكللة بالضوء والنقاء والنظافة • وشعر باطمئنان غريب غير متوقع • فها هو البيت الباقي قد أعد، ولن تضيع عظامه في زحمة العظام كوالديه• وبخلاف المتوقع ايضا انبجس من أعماقه شعور ناعم غريب يدعـــــوه بهمس كالغزل الى الرقاد فوق الارض النظيفة المضيئة ، ليتذوق راحــة لم تقسم له في حياته ، وليستمتع بهدوء لم يعرفه وسط انفعالاتـــــه المتلاطمة الحارقة • نداء مجهول ود لحظتها لو يطيعه منفضا يديه مـن الدنيا بكل همومها وآمالها • ولم يفق من غمرة مشاعره المجهولة حتى غادر القرافة راجعا الى المدينة • كم يود ان ينقل والديـــه الى القبر الجديد ليكمل اطمئنانه اليه ، ولكنه عم باستحالة ذلك منذ زمن غـير قصير • أجل فان قبر الصدقة يكتظ بالجثث بحيث يستحيـــل التمييز بينها • وقال متسولا الاقتناع بحكمة تصرفه :

ـ ليس من شك في ان حياتي اليوم خير من حياتي امس ••

وهي لا تعني بحال انه حاد عن طريق الله وكلمته الابديـــة ، وان اعتراه فتور ملحوظ ••

- ٣٣ -

لتمض الايام •

مهما يكن من امر فقد اصبح صاحب اسرة ومالك قبر ،.وعرف من الطعام الوانا جديدة غير المعهود من لحمة الرأس والكشري والفـــول

والطعمية والعدس والبصارة ، كما عرف للنقود وظيفة غير التحنيط في صندوق البريد •

ولكن ألا تمضي الايام في رتابة ووخامة ؟• وهل فقد الأمل بصفة نهائية ؟!•

وانبثقت من تيار الايام موجة عالية وعاتية غير متوقعة بتاتا ، غيرت المصائر والحظوظ ، وأعادت خلق العالم من جديد • فقد اصبحت الوزارة ذات يوم على قرار بتعيين بهجت نور المدير العام وكيلا للوزارة فخلت وظيفة المدير العام لاول مرة منذ عهد مديد ، وعاشت قلوب كثيرة في خفقان متواصل مقدار اسبوعين حتى صدر قرار بترقية عبد الله وجدي مدير الادارة الى وظيفة المدير العام فبات «صاحب سعادة» بالطول والعرض • وانبعث الخفقان في قلب كان قد استنام الى الهمود زمنا غير قصير ، فقال عثمان :

ــ اني المرشح الوحيد «رسميا» و«طبيعيا» فماذا تراهم يفعلون ؟!

ومضت اسابيع فلم يقصر في حق نفسه ، حادث المدير العام كما حادث وكيل الوزارة •

وسمع بعضهم يقول :

ــ ان وظيفة مدير الادارة من الوظائف الحساسة ••

فسأله عما يعني فأجاب :

ــ لا تراعي الشهادة والكفاءة وحدها عند الاختيار لها ولكن يضاف اليهما المكانة الاجتماعية ••

فصاح بغضب :

ــ ذلك كلام يصدق على الوكيل او الوزير اما مدير الادارة بل والمدير العام فلا يحرم منها ابناء الشعب ، بذلك جرى العرف منذ تنحى عنها الموظفون البريطانيون ••

ولم يطل به العذاب فقد صدر قرار ترقيته الى درجة مدير الادارة

في نفس الشهر • وفيما بعد تذكر ذلك اليوم بوجد وكان يقول :

ــ وقعت المعجزة في غمضة عين !

وقال ايضا :

ــ لم يعد يفصل بيني وبين المدير العام فاصل من الكادر !•

ولكن كيف وقعت المعجزة ؟• جرى في تقديره يوما انه سيحال على المعاش قبل ان يتحرك احد في الطابور امامه ، ولكن حدث تعديل وزاري اختير فيه وكيل الوزارة وزيرا ، ثم اعقب ذلك التغيرات السعيدة المفاجئة • وقال له بهجت نور وكيل الوزارة :

ــ رقيتك رغم الاعتراضات الكثيرة ••

فشكر له فضله ولكنه تساءل بأسف :

ــ ولماذا الاعتراضات ؟

فقال الوكيل :

ــ انك فوق قمة عمرك الحكومي فلا يمكن ان تجهل سببا مما تسأل عنه ••

على اي حال انفتحت نفسه للعمل كحاله الاول ، وتعهد امام ربه بأن يسجل في رياسته الادارة تاريخا فذا حافلا بالعلم والذكاء والفتاوى الخالدة ، وأن يثبت للجميع ان الوظيفة عمل مقدس وخدمة انسانية وعبادة بكل معنى الكلمة • ومن اول يوم قرر ان يتعاون مع عبد الله وجدي بصدق ، لان التعاون مع المدير العام طقس من طقوس العبادة في العمل ، ولانه لم يخن واجب الوظيفة ابدا ، بل قرر ان يغطي ضعفه بخبرته ، وأن يقدم له من الخدمات الخاصة ما هو في حاجة اليها اسوة بوكيل الوزارة نفسه ، ولعله يجني يوما ثمرة ما يزرع • وجعل يقول لنفسه :

عبد الله وجدي في حكم الشباب حقا ولكن عصر المعجزات قد عاد !

ولكنه في الحقيقة لم يعتمد على المعجزة وحدها !• كان يرمـق بدانة عبد الله وجدي باهتمام ويتابع ما يقال عن نهمه في الطعام والشراب بارتياح خفي . ويردد فيما بينه وبين نفسه :

ـ ما اكثر الامراض التي يتعرض لها أمثاله !

وهو حق وعدل • لم لا ؟• انه برغم الهفوات رجل مؤمن . مـن رجال الله . ومن مريدي الحسين ، والله لن يتخلى عنه • قال :

ـ هل يستطيع الانسان في يوم الحساب ان يقدم خيرا من طموحه النبيل وعمله المقدس وتقدمه الثابت وسجلا بالخدمات التي اداها للدولة والناس ؟!

وقال ايضا :

ـ ان الدولة هي معبد الله على الارض . وبقدر اجتهادنا فيها تتقرر مكانتنا في الدنيا والآخرة ••

اما حياته الزوجية فلم تنعم بالهدوء والازدهار طويلا • ومتاعبهـا كانت متوقعة رغم مغالطة النفس والتعلق بالآمال • وقال لها :

ـ قدرية . انك تفرطين في شرب الخمر •

فرمقته بدهشة وقالت :

ـ هذا واضح . وهو قديم ••

فقال برجاء :

ـ يوجد امل دائما في ان تتغلب على عاداتنا السيئة ••

ـ لا ضرورة لهذا التعب ••

فقال برجاء ايضا :

ـ بل اني آمل ان تصومي وأن تصلي فنحن في حاجـة الى رضى الله عنا •

فقالت بامتعاض :

ـ اني مؤمنة بالله وأعلم انه غفور رحيم ••

ـ انك سيدة محترمة ، والسيدة المحترمة لا تسكر كل ليلة !

ـ اذن كيف تسكر السيدة المحترمة ؟!

ـ يجب ألا تسكر على الاطلاق •

فضحكت بصوت مزعج ولكنها سرعان ما قطبت وقالت بأسى :

ـ لا امل !

ـ ماذا تعنين ؟

ـ لا امل في بنت او ولد ، فات أوان ذلك •

وشعر بأنه يشاركها في الحزن على ذلك ولكنه قال :

ـ امامنا على اي حال فرص طيبة للحياة الهانئة •

وبذلت محاولة غير جادة للامتناع عن الشرب ولكنها استمرت فيما هي فيه• وربما ضاعفت من ادمانها بعد رجوع عثمان الى الاستغراق في عمله ومعاناتها لفراغ مخيف بلا انيس • ولمحها مرة وهي تتناول قطعة من الافيون ففزع الرجل وصاح :

ـ لا ••

فصاحت بحدة :

ـ لا تتعرض لهذا !

فسألها بلهفة :

ـ منذ متى ؟

ـ من ايام سيدنا نوح •

ـ ولكن ••

ـ الا هذا ، انه اقوى من الموت ••

ـ ولكنه والموت شيء واحد •

فقالت باستهتار :

ـ ليكن ••

تملكه الفزع • ماذا فعل بنفسه ؟• اي طلاء سعادة خدعه ؟• بأي

ثن عليه ان يقاوم . لا جدوى من التفكير في الطلاق لانه يعني الدخول في معركة حامية ربما انتهت بالقضاء عليه . وسألها :

ـ كيف تحصلين عليه ؟

فلم تجب . فقال :

ـ تذهبين الى الحثالة القديمة المشبوهة وفي ذلك ما فيه من الخطر البين ..

ـ لا تبالغ ..

ـ قدرية ، فكري ، ان لم تغيري حياتك حل الخراب بنا ..

وشحذ ارادته للدفاع عن سمعته ومستقبله . ومن خلال ما يشبه المعركة حملها الى مصحة نفسية وعصبية بحلوان فمكثت بها اشهرا حتى شفيت من الادمان . خيل اليه انها عادت امرأة جديدة . ولم تجد من سلوى في حياتها الا الطعام فأقبلت عليه بشراهة وافراط ، وسرعان ما ظهر اثر ذلك في الدهن الذي اكتنز به جسدها فزاد بدانة على بدانة حتى تبدت في صورة تدعو الى الرثاء والسخرية معا . ولم يفارقه القلق من ناحيتها فكان يعمل بعين ويراقبها بعين ، ويقول بحزن :

ـ فقدت الميزة الوحيدة التي كنت أستمتع بها في الليالي البهيمية ، وها هي تتعرى كاشفة عن بدائية تعيسة بلا خلق ولا دين ولا عقل ولا ذوق ..

وتذكر الآراء التي يعلل بها بعض الزملاء ـ المولعين بالسياسة والافكار ـ هذه الظاهرة وأمثالها من خلال حملاتهم على المجتمع والطبقات ، ولكنه تذكر ايضا «حالته» ، ألم ينشأ مثل قدرية فقيرا وعاجزا ومحروما من كل سلاح ؟. بلى ، ولكنه اكتشف في الوقت المناسب السر المقدس في ذاته الضعيفة ، كما اكتشف حكمة الله الخالدة ، فشق طريقه بجلال وعذاب جديرين بالانسان مخلوق الله العظيم ، ولذلك لم يكد يعطف عليها ، ورجع يتساءل :

ـ ماذا فعلت بنفسي ؟

أجل ، ما معنى حياة زوجية بدائية بلا حب حقيقي او علاقة روحية او امل في ذرية او مجرد زمالة انسانية ؟!! على انه قال لنفسه محذرا :

ـ هون من أحزانك ، لم تعد تتحمل كالزمان الاول ، أجل يوجد تغير جديد ، خفيف كالنسيم ولكنه ماكر كالثعلب ، انه السن ، وانه الزمن ..

وتفكر قليلا ثم قال :

ـ بفضله نحقق كل شيء ، وبسببه نخسر كل شيء ، ولا يبقى الا وجه ذي الجلال !

- ٣٤ -

كالعادة نسي النجاح تماما . انجابت الافراح وتراكمت سحب الهموم . اصبحت رياسة الادارة عادة روتينية ، عليه ان يتجاوزها ، وأن يتجاوزها بسرعة تناسب القليل الباقي من العمر ، والا انقضت مدة الخدمة وهو واقف كالمتسول امام باب الحجرة الزرقاء . والطموح عنيف والزواج لم يعد بالمرفأ المواسي .

ـ يا ربي اني احاول هدايتها فهبني من لدنك قوة .

لكن جهده يتبدد هباء ، ودهمها بتعاسة لم تجر لها في خاطر . في الماضي كانت تعيش التعاسة ولا تكاد تشعر بها ، وتجد في الخمر والافيون ملاذا طيبا ، اما اليوم فهي تتصدى للخواء في يقظة بغيضة بعينين محملقتين مذعورتين بلا عزاء ولا حب ولا ذرية . قال :

ـ كانت في الدرب عزاء لي ولذة اما في هذا البيت المريح فهـي الجحيم •

وقال ايضا :

ـ لو ذهب كل منا الى حاله لربما حدثت معجزة سعادة ، ايـن وحدتي القديمة اين ؟!

ورجع يوما فرأى في عينيها نظرة حمراء ذاهلة وضاحكة فقال برعب:

ـ عدت الى الشراب ؟

فأحنت رأسها باستسلام وقالت :

ـ نعم والحمد لله !

فتنهد وقال :

ـ وعما قريب سترجعين الى الافيون •

فقالت بنبرة ساخرة :

ـ حصل والشكر لله ••

فتساءل بحدة :

ـ والعمل ؟

فقالت بهدوء :

ـ كل شيء طيب ، ليلة امس حلمت بأمي !

ـ سأيأس منك نهائيا •

ـ خير ما تفعل •

ووجدها تذوب في عالمها الوهمي وتعتزله كلية فارتاح بعض الشيء• ها هي تستقل بدنياها وها هو يعود الى وحدته • وقرر ـ بضمير قلق ـ ألا يقاوم تدهورها هذه المرة • وقال يخاطب ربه :

ـ اغفر لي افكاري يا رب ، انها قاسية مثل الحياة ، وهي جـزء منها ليس الا ••

وهو يتلظى بذلك السعير تعينت راضية عبد الخالق سكرتيرة له •

وكان مدير المستخدمين قد طلب منه اختيار الشخص الذي يجـــــده مناسبا لسكرتيريته • قال له :

ــ من حقك ان تختار سكرتيرك ، بل من حقك ان تعين فيه قريبا من ذوي الثقة ••

أحقا لا يعرف الرجل شيئا عن اصله وفصله ؟!• عرف طيلة خدمته الطويلة عبقرية الموظفين في نبش المستور ونشر الفضائح ، ولا شك ان المنبت «الكارو» لم يعد يخفي على احد • وقال للرجل :

ــ اترك لك الاختيار •

فقال مدير المستخدمين مداهنا :

ــ انك مثال النزاهة والترفع يا سيدي المدير •

وفي صباح اليوم التالي دخلت عليه راضية عبد الخالق فحيتـــــه وقالت :

ــ راضية عبد الخالق سكرتيرة سعادتك اذا سمحت ووافقت ••

فقال وهو يتذوق انفعالا طيبا :

ــ اهلا بك ، من اي قسم ؟

ــ المستخدمين •

ــ عظيم ، وما مؤهلاتك ؟

ــ ليسانس آداب قسم التاريخ ••

ــ عظيم ••

هم بسؤالها عن سنها ولكنه أمسك ، وقدره بخمسة وعشرين عاما• رشيقة القوام بصورة ملحوظة ، ذات هالة من الشعر الفاحم سواهـــا الحلاق في بساطة وانسياب فأحدقت بجانبي الوجه الاسمر الطويـــل صانعة له اطارا حانيا ، وعيناها صغيرتان وواضحتان وذكيتان يومضـــان بجاذبية ، وبروز ثنيتيها ــ وربما عد عيبا ــ أضفى علي فيها شخصية حلوة • انفعل بجاذبيتها وقال في سره :

ـ لعنة الله على اختيار مدير المستخدمين الموفق ..
وقال لنفسه ايضا :
ـ اني في حاجة الى مظلة في هذا الجحيم ..
ومن اول نظرة نزع قلبه اليها بارتياح وسرور ورغبة خفية في الاحتماء . وبمرور الايام ازداد تعلقه بها وبخاصة عندما علم بأنها يتيمة وتعيش مع عمة عانس . وفضحته امانيه العميقة امام نفسه . فضحت احلامه ورغباته ، ولكنه كان أبعد ما يكون عن التفكير ـ مجرد التفكير ـ في ارتكاب اية حماقة . قال لنفسه :
ـ حسبي ان أصبح على وجهها كل يوم .
واستأسره ادبها ورقتها وعذوبة نظرتها الناعمة . وحلل ذلك بأنه السلوك الواجب من سكرتيرة نحو مدير ، وهو واجب اكثر اذا كان المدير في سن والدها . ولكن ما بالها تشغله اكثر مما يجب . ما بالها تعبق حياته بشذا طيب ونفاذ . وقال لنفسه :
ـ في لحظة من لحظات الحياة يستوي من اخذها مأخذ الجد ومن لها بها لهو العبث والهزل .
وتوجه الى ربه داعيا :
ـ اللهم عفوك ورحمتك .
وجعل يلاحظ عملها باهتمام حتى سألها يوما :
ـ أيشق عليك العمل في مكتبي ؟
فأجابت بحرارة :
ـ كلا ، اني احب العمل .
ـ كذلك كنت منذ نشأتي الاولى ، وما زلت ، وأبشرك بأنه جهد غير ضائع ..
ـ ولكن يقال ..
فقاطعها :

ـ أعرف ما يقال ، ولا أنكره ، الوساطة •• القرابة •• الحزبية كل اولئك وما هو أشنع ، ولكن الكفاءة قيمة لا يمكن تجاهلها كذلك ، حتى اصحاب المراكز من غير ذوي الكفاءة يجدون انفسهم في حاجة الى من يغطي عجزهم من الاكفاء الحقيقيين ••

وابتسم في افتتان خفي بجاذبيتها واستطرد :

ـ لقد شققت طريقي معتمدا على الله سبحانه وعلى عملي ••

ـ يتردد ذلك في كل مكان •

ترى ماذا يتردد ايضا ؟!• ذلك الذي جعل ام زينب لا ترجع بجواب !• ولكن لم تعد لذلك اهمية اليوم • وقال لها :

ـ من الانصاف ان اصارحك بأنني راض عن عملك تماما !

فابتسمت قائلة بسرور :

ـ اني مدينة لنبلك بهذا التشجيع !

لا يوجد جو أصفى من ذلك • جو نقي مليء بالوعود • والقلب يستقطر منه مرحا مقدسا • من مثل هذا المنطلق يبدأ العاشق سيره ، والزواج الموفق ، والصداقة السعيدة • هكذا يصادف الحائرون احتمالات ثرية للسعادة في ظروف غير مناسبة ، حين يتفق المكان مثلا ويختلف الزمان ، او العكس ، مما يقطع بأن السعادة كائنة ولكن السبل ليست ممهدة دائما ، ومن اللعب بين هذا وذاك يجيء الحظ السعيد او العبث • ولكن لا يجوز ان تنسى الاخطاء كذلك ـ أخطاء؟ ـ ان تنسى سيدة وأصيلة وأنسية •

وبمرور الايام جعل يقول لنفسه :

ـ يا قلبي حاذر •

وكالعادة راح يخاف راضية بقدر ما يودها • وكالعادة ترك نفسه

للتيار ليفصل في مصيره قدر مجهول ..

- ٣٥ -

وتتابعت الايام بين عمل في الادارة وأحـــزان في البيت وأشواق تندلع في القلب . وبدا ان الكون قد توقف وان عبد الله وجدي قـد رسخ في وظيفة المدير العام مثل الهرم الاكبر . وقال بحزن :

ـ لا بارقة امل .

اين تقع المعجزة هذه المرة ؟!. وها هو لم يبق من السواد في رأسه الا شعيرات معدودات ، وقد ضعف بصره فاستعان بنظارة ، وفقـــد جهازه الهضمي نشاطه المعهود فعرف العقاقير لاول مرة في حياته ، وعلاه احديداب لطول انكبابه على المكاتب ولعدم مزاولته اي نوع من انواع الرياضة . وكان يقول لنفسه :

ـ ما زلت قويا والحمد لله ..

وعلى غير عادة كان ينظر طويلا في المرآة ويقول :

ـ ما زلت مقبولا !

وفي تلك الاثناء وضع كتابا في قوانين الموظفين مع تعليق شامل ، وكان للكتاب دوي في اوساط الموظفين . ورغم تقدمه في السن ثابر على طاقته الخارقة في العمل والترجمة ، حبا فيهما ، وهربا من شبـح حياته الزوجية وعواطفه المشبوبة المتسمة في نظره بالنزق والطيش . وقال لنفسه :

ـ فلأعترف بأن ساعة عرض البريد في الصباح هي نصيبي مـــن سعادة الدنيا !

تبادل تحيات ، تراشق بسمات ، تعليقات مصلحية ، دعابات خفية ، اشارات ثناء لبقة الى التسريحة او الحذاء او البلوزة .

ومرة وكان يثني على تسريحتها قالت :

ــ أفكر في تقصير شعري ..

فهتف محتجا :

ــ كلا .

وابتسمت لحرارة الاحتجاج على شأن لا علاقة له بشؤون اللوائح.

ــ ولكن ..

فقاطعها :

ــ اتركيه وشأنه .

ــ ولكن الموضة ..

ــ لا خبرة لي بالموضة ولكنني احبه كما هو ..!

وتورد وجهها . تفحصها بعناية فلم يعثر على اثر لاستياء . وأراد ان يستغل الدروس التي تلقاها في لحظاته السعيدة الماضية فانتهز فرصة وجودها ذات صباح وقدم لها علبة صغيرة انيقة وذهلت راضية وتساءلت:

ــ ما هذا ؟

ــ شيء بسيط لمناسبة كبيرة ..

ــ ولكن .. ولكن كيف عرفت ..؟

ــ عقبى لمائة عام ..

ــ انه يوم ميلادي حقا .

ــ طبعا ..

ــ ولكن .. ما أنبلك .. الحق اني لا أستحق ..

ــ الحق انك لا تحسنين الكلام كما تحسنين التأثير ..

ــ اني ممتنة .

ــ واني سعيد .

وتنهد . واستجمع ارادته . ثم أذعن لعواطفه كلية وبلا احتراس وفي اندفاع انفعالي خطير ، قال :

ـ ما الحيلة ؟.. انه الحب ..

فغضت بصرها متلقية اعترافه باستسلام قدري عذب .

ـ آخر ما يجوز الحديث عنه ، ولكن ما الحيلة ؟

غمق وجهها الاسمر بالدم المتصاعد ولكنهـا لم تذهب ، جلست مستسلمة كأنها تتطلع للمزيد .

ـ لست شابا كما ترين .

وصمت مليا ثم استطرد :

ـ ثم انني متزوج ..

أجل ماذا يريد ؟ ، لعله لا يريد ان يواجه الفشل المحتمل او الموت في النهاية وحده ، بلا حب دافيء وبلا ذرية !. وعاد يقول :

ـ ولكن ما الحيلة ؟.. انه الحب ..

وغلب الصمت مرة اخرى . لم يعد يبالي بشيء . سألها متصنعـا الدعابة :

ـ ما رأيك في هذه الحالة ؟

ابتسمت وغمغمت بصوت غير مسموع فقال :

ـ لعلك تتهمينني بالانانية ؟

فقالت همسا :

ـ كلا ، لست كذلك ..

ـ ولا بالخرف ؟!

فضحكت ضحكة خافتة ناعمة وقالت :

ـ لا تلصق بنفسك ما ليس فيها .

ـ اني سعيد برأيك ولكن ما العمل ؟

وساد الصمت للمرة الثالثة فقال :

ـ أود جدا ان أسمع رأيك؟

فقالت بجدية :

ـ الموقف دقيق ومحير ، ولا احب ان أتجاهل العواطف الانسانية والرحمة ..

ـ لعلك تلمحين الى زوجتي ؟

ـ هو ما يجب ان تفكر فيه ..

ـ دعي ذلك لي وحدي فأنا المسؤول عنه ..

ـ حسن .

ـ ولكني اريد ان اسمع رأيك فيما عدا ذلك ..

وكانت تمالكت مشاعرها لدرجة لا بأس بها فقالت :

ـ ألم تدلك مناقشتي في الموضوع على شيء ما يخص المبدأ ؟

ـ اني سعيد جدا يا راضية ، هذا يعني انك تباركين حبي لك ؟

فقالت بشجاعة :

ـ نعم .

فهزته النشوة حتى سكر وقال باستهانة جليلة :

ـ ليكن ما يكون .

ثم بلهجة مستدرة للعطف :

ـ أعترف لك بأنني لم اعرف قط السعادة !

ـ لم أتصور ذلك .

ـ حياة شاقة وزواج تعيس !

ـ لم أتصور ذلك حقا .

ـ لماذا ؟

ـ تبدو لي دائما حكيما وفكرتي عن الحكماء انهم هم السعداء .

ـ يا لها من فكرة ..

ـ اني آسفة ..

ـ اما انا فسعيد بحبك ..

وآمن بأنه فاز بأكبر غنيمة في حياته . وآمن بأن الحب هو القوة التالية لله سبحانه .

واقتضى سير الامور ان يذهب معها الى بيتها بالسيـــدة زينب . قدمته الى عمتها العانس العجوز . ومن بادىء الامر شعر بأن المرأة غير مرحبة وأن موقفها واضح وحاد . وكانت عصبية وصريحـة . ونوقش الموضوع من جميع جوانبه . قالت له :

ـ طلق امرأتك اولا .

فرفض الفكرة وقال معتذرا :

ـ انها مريضة ..

فقالت بحدة :

ـ انت عجوز ولا وفاء لك ..

فتدخلت راضية للدفاع والاحتجاج وقالت له :

ـ لا تزعل من عمتي ابدا ..

وعادت العمة تسأله عما يريد فاقترح زواجا في السر لفترة قصيرة حتى يتاح له اعلانه ، فصاحت العمة :

ـ الله .. الله ..

وسألت راضية عن رأيها فأجابت :

ـ يوجد اتفاق بيننا على ذلك ، لم أسعد به ولكني لم ارفضه .

فصاحت بها :

ـ انت حرة ، ولكني ارى الامر كله خطأ وحراما .

فهتفت الفتاة :

ـ عمتي !

فتحولت اليه وقالت بغضب :

ـ هل تستغل ضعفنا وفقرنا وألا اهل لنا ؟

فقال عثمان غاضبا لاول مرة :

ــ اني أنموذج للفقر وانعدام الاهل .

فقالت العمة برجاء :

ــ اذن ليلتقط كل منكما رزقه في مكان غير مكان الآخر .

فقالت راضية باصرار :

ــ اتفقنا على مكان واحد ..

فقالت العجوز :

ــ لا حيلة لي ولتكن ارادة الله .

وتم الزواج بعد شهر واحد في بيت العمة . وأعيد تأثيث الشقة لتصلح للحياة الجديدة . وقال عثمان ان حياته سلسلة من الاحلام والكوابيس وان ذلك الحلم الاخير هو أسعدها جميعا . وكان يلبث في بيت راضية حتى حوالي منتصف الليل ثم يرجع الى روض الفرج فلا تسأله قدرية ، في ملكوتها ، اين كان ولا ماذا يفعل . وعن حكمة قرر تأجيل الانجاب حتى يعلن زواجه تفاديا من احراجها ــ زوجته الجديدة ــ في الادارة .

ونسي في سعادته الغامرة كبره وتجمده الابدي امام وظيفة المدير العام وقدرية وقال ان الحياة لم تخلق الا لتكون مسرحا للعجائب تحت العناية الالهية ..

- ٣٦ -

لاول مرة يخطر في ملابس انيقة . بدلة رمادي من الصوف الانجليزي وحذاء انجليزي كذلك ، اما القميص ورباط الرقبة فمن

مختارات راضية بنفسها • ولاول مرة يتعطر بالروائح الزكية ؛ ويحلق ذقنه كل يوم ، ولولا الحياء لأقدم على صبغ شعره • ولاول مرة كذلك يستعمل الفيتامينات ويعنى بصحته ونظافته اكثر من اي وقت مضى • وقال لراضية :

ـ معك يا حبيبتي سأبدأ حياة جديدة بكل معنى الكلمة ••

وقبلها ثم استطرد :

ـ سيكون لنا بنين وبنات ••

وتفكر مليا ثم قال :

ـ الاعمار حقا بيد الله وحده ولكنني من اسرة معمرة ، أسأل الله ان يمد في عمرنا •

فقبلته راضية وقالت :

ـ قلبي يحدثني بمستقبل سعيد ••

ـ قلب المؤمن دليله ، عندي من الايمان ما يغفر لي العديد من الاخطاء ، وخدمت الدولة باخلاص يكفر عن كثير من السيئات ، وعندما تستقر الامور سأقوم بالحج تجديدا لروحي وجسدي •

اما قدرية فتمادت في التدهور ، ولكنه تدهور اراحه منها تماما ، ولم يخل قلبه من رثاء لها ولكنه ظل على خوفه من مصارحتها بزواجه الثاني •

ولم ينس انه نحو نهاية خدمته بلا امل حقيقي في جوهرة العمر ، ولكن الايام في جريانها السريع تمخضت عن حدث لم يكن في الحسبان، فقد عين عبد الله وجدي وكيلا لوزارة الخارجية • فجأة وبلا مقدمات وجد عثمان وظيفة المدير العام خالية • أغمض عينيه ، توسل الى قلبه أن يهدىء من خفقانه ، امسى كل شيء في دنياه ـ عروسه•• أفراحه•• آماله ـ لا شيء امام الوظيفة الخالية • تفجر طموحه المكبوت وانقلب الى العابد القديم في محراب الرقي المقدس •

وقالت له راضية :

ـ الجميع يتحدثون عنك بصفتك المرشح الوحيد ..

فابتهل قائلا :

ـ فليحقق الله الآمال .

ثم بحنان وامتنان :

ـ الحياة العجيبة تمسح في لحظة من الاحزان ما يعجز المحيط عن غسلها ، فهي الام الحنون رغم معاملتها احيانا القاسية ..

ومضى من فوره الى الخارجية ليهنىء عبد الله وجدي فاستقبله الرجل مرحبا وقال له مجاملا :

ـ أعترف لك يا عثمان بك بأنني سررت مرتين ، مرة لتعييني وكيلا للخارجية ومرة ليقيني بأنك ستحل محلي في الوزارة .

وغادر عثمان الخارجية ثملا من السرور والامل . وتساءل ترى هل يندب اولا للوظيفة تمهيدا للترقية او يبقى حتى تتم الترقية ؟. وكلما مضى يوم عذبه الانتظار . أجل تعذب رغم ان الوزير يقدره والوكيل يعتبر حاميه الاول . ولما نفد صبره ذهب لمقابلة بهجت نور الوكيل فاستقبله الرجل بحفاوة وبادره قائلا :

ـ كأني أقرأ فؤادك ..

فابتسم عثمان مرتبكا ولم يجد ما يقوله فقال الوكيل :

ـ ولكنك لا تقرأ ما في فؤادي !

فقال وهو يفكر :

ـ اني مدين لك بكل خير في حياتي ..

فابتسم الوكيل وقال :

ـ المطلوب منك شيء من الصبر ، وسوف تسمع باذن الله ما يسرك.

غادره ممتنا ومسرورا ولكنه تساءل لم يطالبني بالصبر ؟. وقال لنفسه ان الجو يبشر بالخير ولكنه لا يشعر بالطمأنينة الكاملة . وتصير

وعانى العذاب • واستدعاه الوكيل مرة اخرى بعد مرور اسبوع • خيل اليه ان الرجل يعالج نظرة فاترة في عينيه فخفق قلبه خفقة شديدة • قال بهجت نور :

ـ لعلك تتساءل عما أخر ترقيتك ؟!

ـ فعلا يا صاحب السعادة •

ـ حسن ، انت تعلم رأيي فيك ، وأضيف الى ذلك ان رأي الوزير فيك مثل رأيي ••

ـ عظيم ••

وصمت الوكيل • تبادلا نظرة طويلة • قال صاحب السعادة متسائلا:

ـ ماذا فهمت ؟

اجاب خامدا :

ـ ثمة اعتراضات من فوق !

ـ بالصراحة يوجد شبه صراع ••

ـ والنتيجة يا صاحب السعادة ؟

ـ في اعتقادي ان وزيرنا لن يلين ••

سأل بحلق جاف :

ـ ما نسبة الامل في تقدير سعادتك ؟

ـ كبيرة جدا ، ضع ثقتك في الله كما يجدر برجل مؤمن مثلك ••

ثقته بالله لا حد لها • لكن دور الشيطان في الادارة راسخ منذ القدم • عليه دائما ان يعبر جسرا من المسامير • وتأوه قائلا :

ـ الفرص الباقية نادرة جدا •

فقالت راضية :

ـ لا تحزن ، الدرجة ليست كل شيء في هذه الدنيا ••

ولكنه حزن ، ورسب الحزن في أعماقه ، وتقدم في العمر جيلا كاملا ، وتحولت احلام الدنيا الى تراب • واقترحت راضية ان يمضيا

يوم العطلة في القناطر ، فاستجاب لاقتراحها العذب ، وأعطاها قيـاده تجول به في الحدائق • وهيَ البسمة السعيدة الوحيـــدة في حياته • وقالت ضاحكة :

ــ حكمة قديمة ان ننسى متاعبنا في أحضان الطبيعة ••

تربعت فوق الحشائش ووهبت حواسها وروحهـــا للماء والخضرة والسماء المنقوشة بالسحائب المبعثرة ، وهو ينظر اليها باعجاب وافتتان ، وتحدثه عن سحر الطبيعة فيجاملها بالموافقة ، ويجول بنظره في الآفاق فيرى مناظر لم تجدبه من قبل ولا يشعر نحوها بسحر ما ، أجل انـــه منغمس دواما في الداخل ، في افكار محدودة وخيالات تنفثها الغرائز ، في الله ومجده الدنيوي المقدس وصراع الخير والشر والفساد ، عـدا ذلك فهو لا يرى من الدنيا شيئا •

ــ انت تحب الطبيعة ولا شك •

ــ انا احبك ••

ــ انظر الى العشاق !

ــ ما أكثرهم !

انامت راحتها على يده وقالت :

ــ لننس همومنا في هذا الجو المنعش •

ــ أجل لننس !

ــ ولكنك في الواقع حزين ••

تنهد ولم ينبس ، فقالت :

ــ انك موظف كبير ، في الدرجة الاولى ، غيرك كثيرون يسعدون بما دون ذلك بكثير •

أوشك ان يقول لها ان الايمان الحق نقيض السعادة التافهة ولكنه أمسك ، ثم قال :

ــ لست كغيري من الموظفين ، والحيلولة بيني وبين الوظيفة التي

أستحقها عمل دنيء فيه اعتداء صارخ على النظام الاخلاقي للدولة ..

ــ ألست تغالي في تقديرك للوظيفة ؟

ــ الوظيفة حجر في بناء الدولة ، والدولة نفحة من روح اللـــه مجسدة على الارض !

ورمقته بدهشة فأدركـ انها لا تدري مدى ايمانـــه ولا مضسونه . قالت :

ــ انه لمعنى جديد بالقياس الي ، ولكنـــي سمعت كثيرا ان روح الشعب من روح الله !

فابتسم بازدراء وقال :

ــ لا تحدثيني عن الصراعات السياسية ..

ــ ولكنها الحياة الحقيقية ..

ــ ما هي الا صخب زائف ..

ــ الدنيا من حولنا ..

فقاطعها بنفاد صبر :

ــ الدنيا الحقيقية في أعماق القلب ..

وغص قلبه في صدره عندما تصور امكان اذ تراه «مجنونا» كبعض الحمقى فقال لها متهربا ولائذا بأمل جديد :

ــ دعينا من الخلاف ..

فابتسمت في استسلام عذب فاستطرد :

ــ آن لنا ان نعلن زواجنا ..

فتورد وجهها وتساءلت :

ــ هل زالت العقبات ؟

ــ علينا ان نواجه الحياة بشجاعة لنستحق سعادتنا ..

ــ ما أجمل ان اسمع ذلك ..

ــ سأصارح زوجتي بالحقيقة ..

وابتسم ابتسامة أشرق بها وجهه الحزين وقال :
ــ قوة مقدسة تدعوني لتجديد الحياة وانجاب الذرية الصالحة ..

- ٣٧ -

على مسمع من العمة كرر نواياه الطيبة فقالت العجوز :
ــ انك تبدو لي «انسانا» و«عاقلا» لاول مرة ..
فضحك وأغرقت راضية في الضحك ، وقال :
ــ لا خير في حياتنا ولا معنى بدونك يا عمتي ..
فابتسمت العجوز معلنة عن رضاها فقال :
ــ لقد قضينا يوما طيبا في القناطر وآن لي ان اذهب ..
فسألته العمة :
ــ هل تخبر زوجتك الليلة ؟
فقال وهو يقوم :
ــ خير البر عاجله .
وخطا خطوة واحدة ولكنه توقف وقد تغير وجهه بصورة ملحوظة فسألته راضية :
ــ مالك ؟
فأشار الى صدره ولم ينبس ..
ــ هل تشعر بتعب ؟. اجلس ..
تمتم وهو يشير الى صدره :
ــ ألم شديد هنا ..
هرعت اليه لتسنده ولكنه انحط فوق مقعده وراح في اغماء .

ولما افاق وجد نفسه راقدا فوق الفراش لم ينزع من ملابسه الا الحذاء ورباط الرقبة • ورأى في الحجرة شخصا جديدا أدرك من فوره ـ رغم وهنه ـ انه الطبيب • وقرأ في وجه راضية شحوبا وحزنا ، وحتى وجه العمة أعلن عن حزنه • نظر الطبيب في عينيه وسأله:

ـ كيف حالك ؟

فسأله بدوره :

ـ ماذا جرى ؟

ـ شيء طارىء لا خطر منه •

ـ ولكن ••

ـ ولكن الامر يقتضي راحة طويلة بعض الشيء ••

فقال بقلق :

ـ أشعر بأنني في حال طبيعية تماما وأنه بوسعي القيام ••

فقال الطبيب بحزم :

ـ ما دام الامر كذلك فاعلم ان المسألة ليست لعبا . انها بلغة الطب لا خطر منها ، ولكن عدم الانصياع لكلامي يخلق منها شيئا آخر ، يلزمك راحة تامة مثالية ، شهر على الاقل •

هتف :

ـ شهر !

ـ وأن تلتزم بدقة بالدواء والغذاء الموصوف ، لا مناقشة في ذلك البتة ، وسوف أزورك غدا ••

وجمع أدواته في حقيبته الصغيرة ومضى وهو يقول :

ـ احفظ كلامي عن ظهر قلب ••

وغادر الرجل الحجرة وهو يتبعه نظرة مغيظة يائسة • واقتربت راضية حتى التصقت بالفراش وهي ترنو اليه بنظرة باسمة مشجعة وهي تقول :

ـ بعض الصبر وسيمضي كل شيء بسلام ..

عكست عيناه نظرة قلقة فمست جبينه بأناملها بحنان وقالت :

ـ لا تشغل بالك ولا تحمل هما ..

ـ ولكن توجد أمور كثيرة .

ـ سأقوم بالواجب في الوزارة ..

ـ كيف ؟

ـ لا مفر من اعلان الحقيقة ، لا عيب في ذلك البتة ..

ـ يا له من موقف !

ـ ولا بد من ابلاغ زوجتك ايضا !

ـ موقف أشد .

ـ علينا ان نواجه الحقيقة وبأي ثمن ..

وقالت العمة :

ـ اخلد انت للراحة .

ذلك حق ، وعليه ان يقاوم . ارادة الحياة فيه ترفض اليأس والاستسلام . ليكن ما يكون . والامر لا يخلو في النهاية مما يشبه المزاح .

وأغمض عينيه تاركا الاحداث تتشابك في الخارج بعيدا عنه رغم انه محورها . وسرعان ما هرع الزملاء الى البيت لعيادته ، ولما كانت زيارته ممنوعة فقد حمل اليه طوفان من البطاقات . قرأ الادعية والتمنيات الطيبة . وتذكر سعفان بسيوني وحمزة السويفي ، وعاودته ذكريات لم يرتح لها ، وتساءل كيف حال حمزة السويفي ؟ هل ما زال على قيد الحياة ؟. وثمة موظفون جدد يلحقون اليوم بالعمل لم يعرفوه وربما لن تتاح لهم معرفته ، وفوق ذلك كله تجري السحب في السماء وتختفي وراء الافق ، وقد فهم الساعة فقط مغزى حركة الشمس .

وأغمض عينيه حينا ثم فتحهما فرأى قدرية جالسة على كثب من

الفراش ترنو اليه • قرأ في عينيها الذهول الناعم المعتم غير المبالي بشيء كالقمر المجلل بسحابة شفافة • أدرك انها تناجي الملكوت وأنه لا خوف منها • وبدا انها ــ الى ذلك ــ شحنت بتوصيات طبية اذ سألته بهدوء:

ــ كيف حالك ؟

فابتسم مرتبكا وقال بامتنان :

ــ بخير ، شكرا لك !

قالت تعاتب المجهول :

ــ قيل لي ان نقلك الى بيتك «الاصلي» غير محمود العواقب ، وكان بودي أن أسهر عليك !

ــ اشكرك يا قدرية خيرك سابق !

ــ انعم بالراحة حتى يأخذ الله بيدك ••

وهزت رأسها بحكمة غير معهودة ثم استطردت :

ــ لك العذر ، انا فاهمة كل شيء ، انك تريد ولدا . ولك الحق ، وربنا يحقق رغبتك ••

ــ انت طيبة وانسانة يا قدرية ••

ولاذت بالصمت ثم راحت في ذهول معبق بشذا الفردوس • وشعر بارتياح عميق لانكشاف السر ولتجاوزه منطقة الحرج المليئة بالاحتمالات المتفجرة • ولكنه من ناحية اخرى أدرك معنى مرضه بكافة أبعاده •

ــ اي امل يبقى للدرجة ؟

أجل •• أجل ••

ــ وأي امل يبقى للانجاب ؟

وقال لراضية :

ــ لم اشعر بنذير تعب ولو من بعيد ••

ــ الطبيب لم يعجب لذلك ••

ــ وعرفت المعنى الحقيقي المباغتة والغدر !

ــ انها سحابة سرعان ما تمر وتختفي ..

ــ الحق اني آسف لك جداً ..

ــ انا ؟!.. ان ما يهمني هو صحتك وسعادتك ..

فنظر اليها بحب وعطف وقال :

ــ لا أمان في هذه الدنيا ..

اطرقت حتى أشفق من انها تخفي دمعة فقال :

ــ اني ممتن لك ، انت نور في هذه الدنيا التي تمضي بلا منطق ولا وجود حقيقي ..

ــ املأ قلبك بالافكار العذبة حرصا عليك وعلي ..

فتنهد وسأل :

ــ هل ذهبت قدرية بسلام ؟

ــ نعم .

ــ خيل الي ان صوتها زمجر وأرعد ، ماذا جرى ؟

ــ لا شيء البتة ، انها امرأة مسكينة ..

ــ أجل . الاخطاء ترتكب بعدد تردد الانفاس ..

ــ عليك ان تنعم بالراحة الكاملة ..

فرقت نظرته بحنان وسألها :

ــ هل يقدر لنا ان نحقق املا من آمالنا ؟

ــ بمشيئة الله ...

فقال وهو يحدجها بحزن :

ــ في لحظة يأس رميت بالدرجة وراء ظهري وتركز املي في حلم واحد هو الانجاب ..

ــ جميل ، سيكون لنا ذلك ..

ــ شكرا لك يا حبيبتي ..

ــ اهدأ حتى تتم سعادتنا ..

— ولكني أتساءل عن معنى ضياع امل ذي طبيعة خالدة ؟.. انه يعني ان فناء العالم ممكن ، وانه ربما وقع بكل بساطة ..

— ألا تهب وقتا آخر للتفلسف ؟

— حسن ..

— ألا ترغب في شيء قبل النوم ؟

فأجاب باسما :

— أرغب في معرفة حكمة الحياة ..

- ٣٨ -

وأخيرا استقبل زواره . جاء الزملاء والمرؤوسون والسعاة والفراشون . وانعقدت الجلسات بحجرة النوم وطالت وبشرت بالشفاء الكامل . ودار الحديث عن الصحة والمرض ، ومعجزات الشفاء ، ورحمة الله ، ومهارة الاطباء ، وأخبار الوزارة والادارة ، والبطاقة التي أرسلها الوزير ، والاخرى التي ارسلها الوكيل .

— لم لم يحضر الوكيل بنفسه ؟

— انه غائص في العمل حتى قمة رأسه ولكن عذره ضعيف ..

— حسن وما اهمية ذلك ؟

وسرعان ما خاضوا في الاحاديث العامة : حفلة الاذاعة الاخيرة . الاسعار ، صراع الاجيال الخ ..

وهو قد شارك في الحديث بقدر وتابعه بقدر اكبر . وما يدري الا وهم يتكلمون في السياسة !. صكت أذنيه مرة اخرى الصراعات المضطرمة برموزها الرنانة : الحرية .. الديمقراطية .. الشعب ..

الجماهير الكادحة .. المذاهب الثورية .. التنبؤات الراسخة عن ثورات الغد ..

وقال لنفسه ان الفرد ينوء بآماله أفلا يكفيه ذلك ؟!. ولكنهم يؤمنون بأن آمال الفرد رهن بأحلامهم الثورية ! ، حسن .. اي ثورة تضمن له الشفاء وانجاب الذرية وتحقيق كلمة الله في الدولة المقدسة؟!. لكنه لم يعلن افكاره ولم يبح بسره لاحد ، انهم قطيع تافه في مراعي التعاسة ، يعلقون الامل على الاحلام لضعف نفوسهم وتهافت ايمانهم وجهلهم ان الوحدة عبادة .

واستشعر دفء الشفاء الوشيك فرغب في ان يجرب قوته . وجد فرصة في خلو الحجرة فتزحزح ببطء الى حافة الفراش ، وأنزل ساقيه بحذر حتى مست قدماه الارض . غمغم :

ــ توكلت على الله ..

ووقف مستندا الى الفراش واطمأن الى ثقته بنفسه فحرك قدميه بحذر كأنه طفل يمشي معتمدا على نفسه لاول مرة . بصعوبة حملته ساقاه من الضعف وطول الرقاد . تقدم حتى بلغ الباب المغلق ففتحه وواصل السير نحو حجرة الجلوس مضمرا مفاجأة سارة . وباقترابه ترامى اليه صوت ، حوار يدور بين العمة وراضية . تساءلت راضية بحدة :

ــ من ؟.. من ؟..

فجاءه صوت العمة خافتا على غير العادة :

ــ انت الجانية على نفسك ، طالما قلت لك ذلك ..

ــ ما الفائدة ؟

ــ ها هي عقبى الطمع وسوء التصرف !

ــ اصرخي حتى يسمع !

وساد الصمت .

عاد الى الفراش ذاهلا .

ــ فيم يتحاوران ؟.. اي جناية ؟.. اي طمع ؟.. أي سوء تصرف ؟

وأغمض عينيه وهو يعض على شفته :

ــ يا ربي المعبود ، ماذا يعني ذلك ؟ ، أهو ممكن ؟

لم لا . طالما رغب في ان يلعب هذه اللعبة فلم ينجح . ومن شدة الشعور بالخيبة ذهل عن وجوده تماما .

ــ يا لي من أحمق !

ودهمته نكسة . هصرته ازمة جديدة . مضت ايام وأيدي الحياة والموت تتنازعه فيما بينها . وبدا انه مصمم على الاستمساك بالحياة رغم كل شيء ، ورغم قوله لنفسه :

ــ معركة طويلة وخاسرة !

ــ لتكن مشيئة الله ..

وقيل انه اجتاز مرحلة الخطر ولكن كان من المسلم به من اول الامر ان رقاده سيطول الى أجل غير مسمى . ولم يبح بسره لأحد وكان يلقى راضية وهو مغمض العينين . ولم يحقد عليها ولم يغضب وقال لنفسه :

ــ لا يحق لي ان اكرهها الا كما أكره نفسي ..

وقال ايضا :

ــ اذا تهيأ لي يوما ان أنجب منها فلن أتأخر حتى يتحقق للعبة وجهاها الابيض والاسود ..

وتنهد قائلا :

ــ يا لي من أحمق .. هكذا يكون سوء الختام والا فلا ..

لم يغضب ولكنه فقد الثقة في المكان .

***

وذات مساء دخلت راضية بوجه مبتسم وقالت :

ـ وكيل الوزارة جاء لزيارتك .

ودخل بهجت نور بوقاره المعروف فصافحه ثم جلس وهو يقول :

ـ شد حيلك ..

فقال عثمان بتأثير :

ـ خطوة عزيزة يا صاحب السعادة ..

ـ انك تستحق التكريم ولا يمكن نسيان أفضالك ..

فاغرورقت عيناه امتنانا فقال الوكيل :

ـ في مكانك فراغ لا يسده احد سواك ..

ـ انه كرم اخلاقك الذي يتكلم ، ليس الا ..

ـ عما قريب ستشفى وترجع الينا وسوف تجدنا في انتظارك ، ولقد حملت معي اليك نبأ سعيدا ..

وابتسم الرجل والآخر يرنو اليه باعياء وذهول ثم قال :

ـ صدر اليوم قرار ترقيتك الى وظيفة المدير العام ..

استمر ينظر اليه ولكن ببلاهة فقال الرجل :

ـ انتصر الحق والعدل ولو بعد حين .

فتمتم عثمان :

ـ انها لبركة من افضالك .

ـ العفو ، وقد كلفني معالي الوزير بابلاغك تحياته وتمنياته لك بالشفاء العاجل .

ـ لمعاليه الشكر والدعاء ..

وذهب الرجل مخلفا وراءه فردوسا من المشاعر ، كأنما كان رسول رحمة من الغيب . وتلقى تهاني راضية وعمتها وهو مغمض العينين . وعاوده شعوره بفقدان الثقة في المكان . وسمعها وهي تقول :

ـ كم انني سعيدة ..

تذوق في هدوء نجاحه . انه صاحب السعادة ، مالك الحجرة

الزرقاء . مرجع الفتاوي والاوامر الادارية . وملهم التوجيهات الرشيدة للادارة الحكيمة وقضاء مصالح العباد ، وعبد من عباد الله القادرين على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقال لنفسه :

ـ ستتم نعمتك علي يا ربي يوم تمكنني من القيام لممارسة السلطان واعلاء شأنك في الارض !

ولكن الطبيب قال له :

ـ ما يهمني هو صحتك لا وظيفتك !

وانه لصارم وعنيد ، ولو صح تقديره فستظل الترقية شكلا بـــلا مضمون . قال له :

ـ المؤمن الحقيقي لا يسعد بالصحة وحدها ..

فقال الطبيب :

ـ لم أسمع بذلك من قبل ..

ـ وربما استنفدت اجازاتي في الرقاد فأحال الى المعاش !

ـ كل شيء قسمة ونصيب !

وقال لنفسه بوجوم :

ـ لعلهم وهبوني الترقية صدقة وهم يعلمون ان الوظيفة باقية اهم !

ونادى راضية فقال لها :

ـ لا أريد ان أثقل عليك اكثر من ذلك .

فسألته في حيرة :

ـ ماذا تعني ؟

ـ تمريض مريض واجب ثقيل ..

فوضعت اصبعها على شفتيه محتجة فنحاه بلطف وقال :

ـ سأنتقل الى قسم الطبيب المعالج بالمستشفى ..

واحتجت راضية ولكنه أصر . وعرض فكرته على الطبيب فوافق عليها ونقل الى حجرة خاصة . ومهما يكن من شأن الزيارات فقد عاد الى

وحدته كالزمان الاول •

ومضت الايام في مسارها الابدي ، وكاد ان ينقطع ما بينه وبين العالم الخارجي ، وكفت قدرية عن زيارته بسبب التدهور والمرض ، واستسلم لقدره فلم يعد يبالي بما كان ولا بما هو كائن ولا بما سوف يكون • وتحمل الساعات التي تقضيها راضية الى جانبه بضيق شديد ولكنه احتفظ بأحزانه لنفسه ، وآمن في الوقت نفسه بعدالتها • وظل على ايمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة ، بالحياة الشاقة المقدسة ، بالجهاد والعذاب ، بالامل البعيد المتعال • وقال ان العجز احيانا عن بلوغه لا يزعزع الثقة به ، ولا المرض ولا الموت نفسه ، ما دام ان الاصرار على المضي نحوه هو المسؤول عن وجود النبل والمعنى في الحياة •

وكره كلمات التشجيع الجوفاء ، وسلم بأن تقلده للوظيفة الجديدة حلم ، كما سلم بأن نهوضه لانجاب ذرية حلم آخر ، ومع ذلك فمن يعلم ؟!

وما يحز في نفسه ان كل شيء يمضي في سبيله دون مبالاة به • التعيين والترقي والاحالة الى المعاش، الحب والزواج وحتى الطلاق، صراعات السياسة وشعاراتها المحمومة ، تعاقب الليل والنهار ••

وها هي نداءات الباعة تنذر باقتراب الشتاء •

ولعله من محاسن الصدف ان القبر الجديد قد حاز رضاه تحت ضوء الشمس •

انتهت

مؤلفات الاستاذ نجيب محفوظ

همس الجنون (مجموعة اقاصيص)
القاهرة الجديدة
خان الخليلي
زقاق المدق
السراب
بداية ونهاية
بين القصرين
قصر الشوق
السكرية
اللص والكلاب
السمان والخريف
دنيا الله (قصص قصيرة)
الطريـق (رواية)
بيت سيىء السمعة (قصص قصيرة)
الشحاذ (رواية)
ثرثرة فوق النيل (رواية)

ميرامار	(روايه)
خمارة القط الاسود	(قصص قصيرة)
تحت المظلة	(قصص قصيرة)
حكاية بلا بداية ولا نهاية	(قصص قصيرة)
شهر العسل	(قصص قصيرة)
المرايا	(رواية)
الحب تحت المطر	(رواية)
الجريمة	(قصص قصيرة)
الكرنك	(رواية)
حكايات حارتنا	(شخصيات ومواقف)
قلب الليل	(رواية)
حضرة المحترم	(رواية)

هذا الكتاب

وتتابعت الايام بين عمل في الادارة واحزان في البيت واشواق تندلع في القلب وبدا ان الكون قد توقف وان عبدالله وجدي قد رسخ في وظيفة المدير العام مثل الهرم الأكبر . وقال بحزن :

ـ لا بارقة امل .

أين تقع المعجزة هذه المرة ؟! . وها هو لم يبق من السواد في رأسه الا شعيرات معدودات ، وقد ضعف بصره فاستعان بنظارة ، وفقد جهازه الهضمي نشاطه المعهود فعرف العقاقير لأول مرة في حياته ، وعلاه احديداب لطول انكبابه على المكاتب ولعدم مزاولته اي نوع من انواع الرياضة . وكان يقول لنفسه :

ـ ما زلت قوياً والحمدلله . .

وعلى غير عادة كان ينظر طويلاً في المرآة ويقول :

ـ ما زلت مقبولاً !

ورغم تقدمه في السن ثابر على طاقته الخارقة في العمل والترجمة ، حبا فيهما ... من شبح حياته الزوجية وعواطفه المشبوبة المتسمة في نظره بالنزق وال...